بريــــــق

في عينــي الصــغير

روايــــــــــة

حمـــدي عمـــارة

اسم الكتاب	:	بريقٌ في عيني الصغير
المؤلف	:	حمدي عمارة
إخراج فني	:	هيام فهيم
رقم الإيداع	:	2020 / 21403
الترقيم الدولي	:	978-977-6732-13-1
الناشر	:	اسكرايب للنشر والتوزيع

002 01005079256

Scribe20199@gmail.com

اسكرايب للنشر والتوزيع – scribe2019

اسكرايب للنشر والتوزيع – scribe2019

جمهورية مصر العربية

حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

لدار اسكرايب للنشر والتوزيع

كل الحقوق محفوظة

لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة بأي شكل من الأشكال ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

اسكرايب SCRIBE

"مـا أصـعب أن يحيـا الإنسـان بـلا هـدف يرفـع قَـدرَه، ويُثبـت ذاتـه وكيانـه.. وأى معنـى للحيـاة دون أمنيـة، أو أمـل يسـعى المـرء لتحقيقـه".

"أميمة"

"المعجزة: كلمة هزتنى، ومعنى أَسِرَنى. المعجزة: كنت أحسّها فى كيانى، وكانت تُطلُّ بداخلى، وتتردد فى أعماقى. كانت تائهة فى عالمى إلى أن فاهت بها الأم الحنون!. إن حبى لها يعدل حبى لأمى".

"المعجزة من صُنعِ الله؛ فأين صُنعى؟!".

"زياد"

"لا شىء مستحيل. أنا الذى كسّرت القيد، وحطمت الصعب، وقهرت المستحيل. أنا البطل "زياد"!. أنا البطل "زياد"!.

إهداء

إلى الرجال الصغار: أبطال التحدى والإرادة: أولئك الذين اصطفتهم الأقدار؛ ليدوسوا الصعب، ويقهروا المستحيل، ويبلغوا السحاب.

(١)

ما أجمل الشروق!. حيث تزحف الشمس من وراء الأفق، وترسل أشعتها الواهنة فتوقظ الأحياء، وتُلبس الحياة ثوب النهار، وحيث تهبّ النسائم؛ فتداعب الزهور؛ فتفوح في الجو رائحة عطرة تنعش النفس وتبعث فيها النشوة والحبور.

لشارع واسع بضاحية المدينة: تظلله أشجار "الفيكس" المصطفة على جانبيه. الأبنية حديثة الطراز بين "فيلات"، وعمارات محدودة الطوابق.. الشارع يطويه الهدوء؛ إلا من شقشقة العصافير، ومرور بعض سيارة كل حين.

تبدو عربة فارهة تتهادى. "سعاد هانم" أمام عجلة القيادة، وهي على مشارف الأربعين، وعلى يمينها نجلها "زياد" في الحادية عشرة من عمره. تدور العربة نصف دورة بميدان الزهور، وتتوقف أمام بناية فخمة من طابقين. تتطاول أشجار "بنت القنصل" من خلف سورها الحديدي المرتفع، البوابة ضخمة تعلوها لافتة تحمل اسم البناية: "دار الزهور البشرية".

سرعان ما تترجّل الأم لتساعد ابنها؛ الذي يُبعد يدها!، ويترجل معتمدا على نفسه وعصاه!. كما يُشيح بوجهه حينما أرادت أن تطبع قُبلة على خدّه؛ غيرعابئ بنظرة الأسى التي أطلّت من عينيها. ثم عرج متخذا سبيله نحو البوابة؛ لتمسح الأم عبرات حارة انسابت على خديها. كان زياد عائدا من زيارته الشهرية؛ حيث يقضي يومين مع أسرته، وفقا للائحة الدار.

(٢)

الصغار المعاقون بقاعة التسلية: صبية وصبايا فى عمر الزهور؛ تتراوح أعمارهم ما بين السادسة والثانية عشرة. يتبارون فى ألعاب: "الشطرنج، والبلاى ستيشن، والكمبيوتر" و. من يرسم لوحة، ومن يقرأ فى مجلة أو كتاب، ومن يحاور زميله أو زميلته، وهؤلاء يحكون ويضحكون.. إلا زياد!؛ الذى انزوى وحده. عصاه بجانبه. يحدّق فى ساقه المصابة، وقد تبدّى الحزن فى أساريره، ثم ينظر شزرا إلى عصاه!.

يُدير رأسه ويرنو إلى صفحة السماء عبر النافذة. تبدو تقاطيعه التى تُنبئ بالعزة والاعتداد والثقة بالنفس، وتوحى بالعزم وقوة الإرادة، وعيناه لتى تنطق بالتمرد و.. تتألق ببريق عجيب!.

سماح ذات التسعة أعوام ضمن الصغار. تتصفح مجلة أطفال. تتلفت كل حين إلى مكان بعينه، ثم تعود لمجلتها. ابتسمت هذه المرة!. طرحت المجلة جانبا. تناولت عصاها، وقامت تعرج ناحية زياد!. وقفت على مقربة منه. لم يشعر بوجودها!. هتفت باسمه. لم يسمعها. يبدو شاردا!. ترى فيم شروده؟!. تمسّ كتفه فيلتفت إليها:

– سماح!.

تلمح توتره، ونظرة الأسى فى عينيه!. علاها التأثر، وكأنما أرادت أن تُسرّى عنه فبادرته:

– ما رأيك فى مباراة؟.

ويجرى الكلام على لسان زياد:

– كرة قدم؟!.

وتردد سماح في دهشة: كرة قدم؟!.

ثم تنقل بصرها بين رِجله وعصاه، وتهز رأسها قائلة:

– كلا بالطبع.. شطرنج.

أفاق زياد فردّد فى فتور: شطرنج!.

– وسأفوز هذه المرة.

كاد أن يعتذر ويسألها أن تدعه فى حاله، ولكن لأمر فى نفسه قال:

– و. ولكنى أفضّل نزهة بالحديقة..؟.

– بشرط. أن تخبرنى فيم كان شرودك.

برقت عيناه!. أتجترئ وتشترط عليه!. كاد أن يعلن عن سخطه. ولكنه لم يفعل لذات الأمر الذى فى نفسه. سحب عصاه وتّقدمها.

(٣)

عصام أحد الصغار. كان يراقبهما، وما لبث أن ترك زميله الذى فوجئ بتصرفه!. لحق بهما. استوقفهما. طلب مرافقتهما. يبدو أن زياد رفض. وتركاه يعانى من حَرَجه، وعرجا إلى خارج القاعة بعد استئذان المشرفة.

ما أجمل التنزه؛ بين الشجر والزهور، وهفهفات النسيم، وأغاريد الطيور!؛ ليهدأ زياد؛ فينبرى معبّرا عن مدى حبه وشغفه بكرة القدم. التفتت إليه سماح:

– لعلك تعنى شغفك بمشاهدة المباريات؟

اعترض زياد كأنما ينفى تهمة عن نفسه:

– مشاهدة!. كلا. بل اللعب.

– اللعب!. كيف و. و.

طافت بمحيّاه سحابة حزن، وردّ فى أسى:

– لستُ أدرى!.

– أهذا سبب شرودك؟.

ويبدو أن سماح مسّت مصدر الألم فاندفع قائلا:

– إننى لا أفكر إلا فى كرة القدم و. ولكم أتحرّق شوقا للّعب على البساط الأخضر. أراوغ الدفاع، وأسدد على المرمى، وأسجل الأهداف. ما أجمل أن تعبُر الكرة خط المرمى وتعانق الشّباك!. إننى. إننى.

– وما المشكلة؟!. يمكنك أن تفعل ذلك بعد شفائك.

– شفائى!. متى؟!. متى؟!.

تألمت الصغيرة، وتلجّم لسانها وانتابتها الحيرة؛ فماذا تقول وهى تعانى مثله؟!. ولكن قالها لسان حالها:

– "لا تبتئس رفيق الألم. فكلنا فى الهمّ شرقُ".

(٤)

لنعُد إلى عصام، الذى لم يعد ليستأنف للعب مع زميله، وإنما وقف ذاهلا يتجرع مرارة الإهانة!. لقد باغته زياد، وما كان يتوقع مثل هذا!. إنه يحبه ويبتغى صداقته!. لكن زياد صدّه حينما سعى إليه: "منطق معكوس، وظلم. ظلم!". لن يتوانى عن ردّ إهانته، والثأر لكرامته التى جُرحت، وإلا لن يلتئم الجُرح، وسينزف إلى أمد بعيد!.

حثّ رِجله وعصاه إلى المشرفة. سألها الخروج إلى الحديقة. ترددت فى بادئ الأمر إذ أنها لمحت توتّره، ونظراته غير المستقرة، ولكنها أجابت طلبه حيث عزمت على استطلاع ما ورائه، والوقوف على ما ينتويه.

خرج عصام من القاعة. أرسل طرْفه نحو الحديقة باحثا عن ضالّته. وقع بصره عليهما، وكان زياد ماضٍ فى حديثه الشجىّ عن آماله العراض؛ التى انهارت إثر إصابته، وسماح بدورها تخفف عنه قدر وسعها. ولم يكن يدرى أحدهما بمؤامرة عصام؛ الذى أسرع واختبأ خلف جذع شجرة. صدرُه يعلو

يهبط!. يمرّان بجانبه. تتلاحق أنفاسه كأنما يعدو!. أصبح خلفهما. فليعجّل بتنفيذ ما دبرّه لزياد. انتابه الذعر. دقات قلبه كأنها طبول الحرب!. كاد أن يعود من حيث أتى، ولكن تأبّت كرامته، وانتحبت، وعلا نشيجها!. اتسعت عيناه. تلفت من حوله. لا أحد يراه. تحسس الأرض بقدمه وعصاه. دبّ قلبه ودبّ!. أصبح على قيد خطوتين من هدفه؛ بل خطوة. عيناه على الهدف. يحب ألا يُخطئ العصا و.. سرعان ما انقضّ عليها وانتزعها من يد زياد؛ الذى فزع وترنح، وكاد أن ينكفئ لولا أن تشبثت به سماح. الذهول فى عينى الصديقين!، وعصام يضحك ويضحك و.. وشعور بالراحة يحتويه، وتقول عيناه لزياد:

– "واحدة بواحدة، والبادئ أظلم".

لم تتمهّل المشرفة وهبّت من فورها، وانطلقت نحوهم.. ما زال عصام يضحك منتشيا، والآخران يتبادلان نظرة تساؤل وحيرة. تزعق المشرفة على عصام الذى تأخذه المفاجأة؛ ليتوقف عن ضحكه وإيماءاته الساخرة. يبدو لها رأته. من وشى به؟!. لقد ظن أنه فى مأمن ومنأى عن الأعين. يا له من مأزق!. لقد ضبطته متلبّسا، والدليل: عصا زياد التى فى حوزته. ماذا يقول والشررُ يقدح من عينيها، وملامحها لا تبشر بالخير؟!. المهم أنه ردّ اعتباره وليحدث ما يحدث و،. لن تقبض روحه.. أربكته بسؤالها:

– لم فعلت هذا؟!.

– إننى لم أفعل شيئا. أقصد أننى أ.. أضحك معه.

– تضحك معه؟!.

يقترب من زياد ويناوله العصا وفى عينيه نظرة استعطاف قائلا للمشرفة:

– نعم؛ فلتسأليه.

ثم يرنو فى عينى زياد متوسلا: أ لستُ أضحك معك يا زياد؟.

ابتسمت عينا زياد، وجعل ينقل بصره بين سماح والمشرفة، ثم يستقر على عصام. وأخيرا يومئ بالإيجاب؛ ليلتقط عصام أنفاسه، وكاد أن يعانق زياد؛ حين ترسل المشرفة نظرة ذات مغزى إلى زياد؛ الذي رف–ت أهدابه.. تهز رأسها مُوجّهة كلامها إلى عصام:

– ولو. تصرف خاطئ، ولن أسمح بتكراره ثانية. مفهوم؟.

وما تلبث أن تعود إلى القاعة لتباشر مسئوليتها؛ بينما يوجّه عصام نظرة امتنان إلى زياد؛ الذي يردّ بابتسامة وُد؛ ليطأطئ عصام رأسه خجلا. يمد زياد يده ليرفع رأسه، ليُطلقا ضحكة صافية!.

ما أسعد عصام!. لقد اصطاد عصفورين فى وقت واحد؛ فحين ردّ اعتباره؛ حقق أمنيته فى التقرب إلى زياد، وهاهم يجولون بين ربوع الحديقة يتجاذبون كلاما عذبا، وأحاديث شيقة. سبحان مغيّر الأحوال!، وصدق من قال: "قد يتحقق الحُب بعد العداوة".

(٥)

الحقيقة مُرة كثمرة الحنظل، والواقع موجع وغير مُحتمل، لذا كان رياد دائم الفرار من المواجهة؛ فيعكف وحده بالحديقة أو بـ "فراندة" الدار؛ يجترّ ذكريات الماضى المحببة إليه. يعايش لحظاتها السعيدة المشرقة. ويتأمل مواقف كان لها أهميتها البالغة فى حياته، ومستقبل أيامه.

كانت أمتع أوقات زياد تلك التى يقضيها فى قراءة الصحف والمجلات الرياضية؛ متتبعا أخبار نجوم كرة القدم المحليين والعالميين، والذى كان يحلم أن يصبح واحدا منهم، وكان يكنّ لهم حبّا كبيرا. ومن أجل ذلك أعدّ "ألبوما" فخما يضمّ صورهم: يتصفحه كل حين.

وكان يطلق لخياله العنان، خاصة خلال مشاهدة المباريات الدولية فيتخيل أنه "كريستيانو رونالدو"، أو"ميسّي"، أو.. فيتلقى الكرة من زميله ويراوغ الدفاع، وحارس المرمى، ويسجل هدفا.. وآخر؛ بين صياح الجماهير، وهتافها باسمه الذى يصُمّ الآذان!.

يمضى شريط الذكريات، وتتوالى الصور فى خياله الجامح؛ فيرى الجماهير تحمله على الأكتاف، وتلفّ حول الملعب؛ بينما تلاحقه عدسات المصورين لتلتقط له مئات الصور!.

كان زياد رأس الحربة بفريق المدرسة، وكان هدّاف الفريق. وكثيرا ما قاد فريقه للفوز فى مباريات دورى المدارس، وقد انحصر أمله فى أن يغدو لاعبا شهيرا. وكان والده يحثه على المضىّ، ويشجعه على الاستمرار بشرط ألا يهمل دروسه، ويتفوق فى الدراسة تفوقه فى اللعب.

ذات ليلة كان مندمجا فى مشاهدة نهائى كأس العالم، حين دخل عليه والده منفرج الأسارير، تسبقه ابتسامته؛ بينما أومأ إلى أمه.. ربّت على كتفه، ثم فاجأه بهدية تفوقه فى المدرسة: "كرة قدم، وزىّ كامل". والأهم أن القميص يحمل اسم ورقم محبوبه اللاعب الشهير: "رونالدو". رقص قلبه فرحا ليعانق أباه، وأمه التى اغرورقت عيناها بدموع الفرحة. وكم كانت سعادته حين وعده والده بإلحاقه بفريق أشبال النادي الكبير.

إنه لا ينسى كلماته:

– لقد حان الوقت لتمضى فى طريق النجومية.

ولا ينسى توصيته بالاجتهاد، وبذل الجهد، واتباع نصائح وإرشادات المدرب وأن يُنزله منزلة المعلم والأب. ولكن!. كانت الدموع تنساب من عينى زياد.. سقطت إحداها على يده ليفيق من نشوة الفرحة على كابوس الحقيقة!. تذكر

فَعلة عصام وعجزه عندما افتقد "العكاز" بديل رِجله. اندفع الدم في رأسه. كلا. لن يستسلم، ولن يعتمد على "العكاز" الكئيب!. إنه يمقته. وبوذه لو كسّره. دفعه بقدمه. حاول أن ينهض دونه. وُفّق. خطا خطوة، وأخرى!. ولكنه أخفق في الثالثة، وما لبث أن اعتمد على المقعد قبل أن ينبطح أرضا!.. تأفّف. لا فائدة!. سحب "العكاز"، وانطلق يدبّ فى الردهة، إلى حيث غرفة الأخصائية الاجتماعية.

(٦)

السيدة "أميمة": ملاك الدار، وروحه، ونبع دفئه وحنانه. الوجه المشرق دوما: فهى دُرّة أو أُمّة كما يراها زياد والآخرون. اللهم إلا حاقدا، أو أعمى قلب، أو مريضا نفسيا. ولا غرابة أن يحبها زياد كحبه لأمه، ويهرع إليها كلما افتقد طوق النجاة، وأظلمت فى عينيه الحياة. دخل زياد من الباب المفتوح!. طالعته ابتسامتها الحلوة: بثغرها، وعينيها، وكل ملامحها!. بلمحة خاطفة قرأت ما يدور بخلده ورأسه!.. عَفَتْه من تساؤل قد يُثقل عليه، بصوتها الطريب تعزف لحن الأمل؛ الذى ينساب فى مسمع زياد؛ فيداعب مشاعره، ويَمَسّ شغاف قلبه؛ موضحة أن الأمل يربط بين الإنسان وحياته: بل هو روح الحياة، ومؤكدة أنه لابد لكل إنسان من أمنية.

– كل إنسان؟!.

– بالطبع فما أصعب أن يحيا الإنسان بلا هدف يرفع قَدرَه ويُثبت ذاته وكيانه. وأى معنى للحياة دون أمنية أو أمل يسعى المرء لتحقيقه؟.

تُصدر عينا زياد بريقها العجيب:

– حتى لو. لو..

وهذه "سكينة"زميلة "أميمة"، تدوس أرض المعبد؛ فتقطع خيوط الإشعاع عن زياد؛ ليسكت عن الكلام، وسرعان ما ينصرف متذمرا، وفي عينيه لوعة وتساؤل:

- "لم أتيتِ؟!"..

يعود زياد، وصوت "أميمة"، يرنّ صداه في عالمه:

- "وأيّ معنى للحياة دون أمنية.. أو أمل؟!"..

(٧)

كانت "سكينة" غاضبة، وقد جاءت تشكو لها تعنّت الأستاذ "مستور" المدير الإدارى؛ الذى رفض طلب إجازتها يوم غد..

- بصراحة. عنده حق..

- ماذا؟!.. أنت معى أم معه؟!..

- مع الحق. تعرفين أن الغد يوم الزيارة. أى: طوارئ، ويكون الجميع على قدم وساق، وأعينهم فى وسط رءوسهم.

- يوم الأزمات!، ولذا طلبت الإجازة.

- هربا من المسئولية!.

- بل طلبا للراحة من مشاكل الأولاد، وما يسببونه من متاعب.

- أطفال يا "سكينة"، ويعبّرون عن فرحتهم بأسَرِهم وأهلهم الذين حُرموا منهم طيلة ستة أيام كاملة.

- وكله على أعصابنا. تعبت يا أميمة!.

- هذا حالنا جميعا. إنها مهمة إنسانية قبل أن تكون عملا نتقاضى عليه أجرا. كلنا أمهات.

- أمهات!.

إحمرّ وجه أميمة، وعضّت شفتها:

– متأسفة!. لم أقصد جرح مشاعرك.

ثم أضافت مُداعبةً:

– بإذن الله ستحملين فى توأم.

– توأم؟!.

(٨)

أقبل الليل، ولا يهجع الصغار إلا فى الهزيع الأخير من الليل؛ بعد أن يُدركهم التعب. يداعبهم الشوق للغد، ويستحلفونه أن يُعجّل بالمجيء، وبودّهم لو سهروا حتى الصباح وانطلقوا مع العصافير، أو أنهم أرادوا أن يُوصِلوا اليوم بالغد دون فاصل أو همزة وصل؛ حتى لو كان للخلود إلى الراحة، أو السُّبات!.

فى عنبر البنات بالدار: الصغار يتهيأن للغد: يحكين، ويعبّرن عن لهفتهن وفرحتهن بلقاء الأهل والأحباب؛ إلا "منال" التى لم تشاركهن، وانسحبت، والتزمت فراشها!. تلحظ "سماح". كادت أن تنادى عليها، ولكنها آثرت أن تسعى إليها. دار بينهما حوار.. علمت أن أسرتها لن تزورها؛ فهُم عسى سفر إلى البلد لزيارة جدّها المريض. عندئذ راحت "سماح" تهوّن عليها قائلة فى لباقة:

– أهذا ما يحزنك؟!. أولا: زيارة المريض واجبة. ثم إنه جدّك.. ثانيا: الأيام تجرى، وسرعان ما يأتى يوم الزيارة التالية.

ثم أحاطتها بيدها وأضافت:

– تعلمين أنني أحبك مثل أختي، وإنني أدعوك لتقضي الغد معنا، وفرصة ﻷعرّفك بأختي "سلمى". كم هي لطيفة، وإنني على يقين أن تحبيها وتضمّيها إلى قائمة صديقاتك، وربما على رأس القائمة..

كان لكلام "سماح" مفعول السحر على زميلتها؛ التي انفرجت أساريرها، ولم تدَعْها "سماح" حتى رأت الابتسامة تزيّن محيّاها وترقص على ثغرها، ثم تصحبها إلى الزميلات!.

في عنبر نوم الأولاد. لم يشارك "زياد" زملاءه، وإنما جلس على حافة فراشه. أطرق برهة، ثم سحب "ألبوم" الصور من تحت الوسادة، وجعل يقلب صفحاته، ويتأمل الصور واحدة بعد أخرى. يبتسم مرة، ويشرد أخرى، ويطرق ثالثة، ثم يعود ليبتسم. تتسع ابتسامته، وفجأة يعلوه التجهّم حين يقع بصره على صورة شقيقته الوحيدة "زهراء"؛ التي تصغره بثلاثة أعوام، وهي ترتدي بدلة التدريب والكرة بين يديها.

(٩)

رجع بذاكرته إلى ماض غير بعيد: كان الوقت صباحا، وكان قد صحا من نومه والصداع المعهود يهاجم رأسه، وها هي زهراء تطرق الباب ويأتيه صوتُها بينما تدخل:

– ألم تستعد بعدُ للعب؟.

تضع أمامه كوب اللبن: أنا التي أعددته.

يحاول أن يتماسك ويأخذ الكوب:

– شكرا يا "زهراء".

– اشرب اللبن، ثم ارتدِ ملابس التدريب، وسأنتظرك بالحديقة. لا تنسى الكرة.

وما تلبث أن تنطلق إلى الحديقة، وبعد أن يرتشف زياد اللبن.. يتحامل على نفسه، ويرتدى زىّ التدريب. كاد أن ينسى الكرة!، ولكنها أطلّت له من داخل الشبكة. وهي معلقة بجانب الباب. افترّ ثغره عن ابتسامة خفيفة. أخذها، وأحاطها بيده، وقصد الحديقة؛ حيث تنتظر "زهراء".

بدأت "زهراء" بحراسة المرمى، وجعل "زياد" يسدد ، ويبدو أنه نسى الصداع، أو انزاح عن رأسه. واصل تسديداته المتنوعة وحساب الأهداف، ولكن عاد الصداع يدقّ رأسه بشدة. حاول أن يتماسك. شعر بالدوار. أمسك برأسه حين كانت "زهراء" تستحثه:

– العب يا "زياد"!.

حاول أن يسدد الكرة. لم يستطع!. ترنّح، ثم سقط على الأرض؛ حين صرخت "زهراء":

– " زياد! ".

وأسرعت ناحيته، وانحنت عليه:

– ماذا أصابك؟!

تلفّت من حوله، ولم يشأ أن يُفزعَها؛ فانتزع الكلمات:

– إننى بخير.

جسّت رأسه. شهقت:

– حرارتك مرتفعة!. مستحيل!. "دادة!". يا "دادة!".

سمعت "أم الخير" صياح زهراء. تركت ما بيدها، وهرولت إلى الحديقة:

– يا ساتر يا رب!.

أرسلت طرْفها نحو "زياد"؛ لتواصل هرولتها، وما تلبث أن تنكفئ عليه:

– حبيبى!.

وسرعان ما توقفه بمساعدة "زهراء"، ويتحامل عليهما حتى فراشه، وما أن خرج "أم الخير" إلى الصالة؛ لتضع يدها فوق رأسها:

– ماذا أفعل؟!. سيدى "عمر بك" فى السفر، وسيدتى "سعاد" هانم في الشغل. ما العمل؟!. كيف أتصرف؟!.

وما لبثت أن تتصل "زهراء" بأمها؛ لتلتقط "أم الخير" أنفاسها:

– سلّمها يا رب!.

(١٠)

حرك "زياد" عينيه حين أحسّ بسخونتها. أطرق بينما تأمل عصاه. رفع رأسه وألقى بنظرة على صفّى الأسرّة. الجميع نيام!. أرسل تنهيدة حارّة، ثم أغلق "الألبوم"، وأعاده تحت الوسادة. سحب عصاه ومسّ بطرفها على الأرض حتى لا يُقلق أقرانه؛ قاصدا الباب المؤدى إلى "الفراندة". يفاجأ ب– سكينة"؛ التى تفاجأ به أيضا. ينتفض شاهقا:

– "ميس سكينه"!.

– لم فزعت هكذا؟!. أ رأيت عفريتا؟!

– لا شيء يُفزعنى، وإنما..

قاطعته قائلة فى سخرية: إلى أين يا هُمام؟!.

– همام؟!.

– انطق يا ولد!.

– اسمى زياد!.

كادت أن تضحك؛ بينما لفت نظرها جرأته:

– إلى أين يا.. زياد؟.

– سأتنسم بعض الهواء فى..

– هواء!. أتعرف كم الساعة يا وحيد عصرك؟!.

– وحيد عصرك؟!.

– لماذا تحملق هكذا؟!. عُد إلى فراشك.

يبادلها نظرة، ثم يمضى غير عابئ إلى مقعد بـ "الفراندة"؛ بينما تتأمله "سكينة" غير مصدّقة:

– مستحيل!.

وما تلبث أن تدبّ الأرض بقدمها، وتدع المكان!.

(١١)

أقبل الصباح، ويصحو الصغار ملائكة البشر؛ صدورهم منشرحة. وعيونهم تتألق بالفرحة؛ فاليوم العيد. أقصد الجمعة. لا فرق؛ فإنهم يستقبلوه كما يستقبلوا العيد!، وما أحب العيد لدى الصغار!. وعلى الأخصّ أسْرَى العجْز ذوى الحاجة، وها هم يتسابقون وينتشرون فى حديقة الدار. يلعبون ويمرحون، أو يتصايحون ويتعاركون. واتخذ البعض ركنا ليترقب فى تشوق وحنين. الصخب يملأ المكان، والصغار فى غمرة فرحتهم راضين، أو ناسين مُصابهم، وما صنعته بهم الأيام.

يومٌ عصيبٌ وغيرُعادىّ. المشرفون والمشرفات لا يفعلون شيئا إلا مراقبة الصغار، فهم يتدخلون في الوقت المناسب؛ قبل وقوع أذى أو ضرر، ويُهرعون لفضّ اشتباك، وإلى ما غير ذلك. إنهم مسئولون عن سلامة الصغار ورعايتهم.

تموجُ الحديقة بالزهور البشرية، و"سماح" لا تشارك أقرانها لعبهم ومرحهم، وإنما كانت تنظر هنا، وتفتش هناك، وتسأل هذا، وهذه، وذاك.. يبدو أنها تبحث عن شيء ذى بال!.

(١٢)

بـابة الدار مفتوحة على مصراعيها. يتوافد الأهالى فيتسابق الصغار معتمدين عـلى عصيّهم. يعرجـون نحوهم. ينكفئ البعض لينهضـوا؛ تسـبقهم صـيحات الـرحة، وتتلقفهم الأيدى والأحضـان، وسرعان ما يشيع فى الحديقة جوّ من السرور: مشهد أخاذ ينبض بالحياة!.

لتقـت "سـماح" بـأفراد أسـرتها، وأذابـت الأحضـان ثلـج الشـوق، وقـد وفـت "سـماح" بوعدها لـ "منال" وعرّفتها بأسرتها ليحتفوا بها أيّما احتفاء، وما أيسـر أن تنشأ صداقة بين "سلمى ومنال"!.

تـدخل "سـعاد" هـانم مـن بوابـة الـدار وبصـحبتها "زهـراء" والأب. فـى أعينهم لهفة ولوعة وبقايا دموع. والأب محزون مأخوذ؛ إذ أنه عاد من سفرته، وكانت هذه أُولى زيارته لفلذة كبده "زياد".

كـل الأسـر تضـمّ أفراخهـا عـدا أسـرة "زيـاد"!. الأبَـوَان يسـاورهما القلـق، ويشخصـان إلى ناحية بعينها، و"زهراء" تتلفت من حولها فى رهبة، وتسأل كل حين عن أخيها الذى تأخر على غير العادة. لقد كان ينتظر بالبوابة كل مرة!. لماذا تأخر؟!.

– المشاركة واجب!. ماذا ننتظر؟!. هيا بنا!.

هكذا هتف والد "سماح"، ليهبّ واقفا ويتقدم الجميع إلى حيث أسرة زياد. فقـد تعارفـت الأسـرتان مـن قبـل، ومـا تلبـث أن تسـتأذن "سـلمى"، وتلحـق بهـا "زهراء".

كـان "زيـاد" محلّقـا فـى سـماء ذكرياتـه. تطالعـه "سـلمى" بوداعتهـا، وبهـاء محيّاهـا، وابتسـامتها الواثقـة و.. شخصـيتها الآسـرة!. التقيـا صـدفة؛ بـل أرسـلها

القدر فى طريقه. وسرعان ما ملكت عليه فكره، ووجدانه، وكيانه و.. لتحتل فى عالمه مكانا عليًا!.

إنه لا ينسى أول لقاء: كان فى حديقة عامة، وكان يوم عيد؛ فالصغار مصدر جمال الحديقة والحياة بملابسهم الجديدة: يُطيّرون "البالونات"، ويلعبون ويمرحون ويتسابقون، والأهالى جالسين فى ظلال الأشجار يتبادلون أحاديث تتخللها الضحكات: جوّ تفعمه الحركة والبهجة.

كان "زياد" مندمجا مع أخته "زهراء" فى مباراة فى الشطرنج، والأم تتابعهما، ولكنه توقف عن اللعب حين لمح الأولاد يستعدون لمباراة كرة القدم. يدع "زياد" الشطرنج، ويلتقط عصاه، ويعرج إليهم سائلا إياهم الانضمام لأحد الفريقين. نظر أحدهم إلى عصاه، وتبادل مع أقرانه نظرة دهشة وفى أعينهم تساؤل: "كيف؟!". خنقت الدموع زياد، وانسحب، ووقف بعيدا محزون الفؤاد مكتفيا؛ بالمشاهدة التي لا يملك غيرها!، ولم يكن يدري أن هناك من يرقبه، وقد تأثر من أجله وما لبثت أن سعت "سلمى" إليه. تدنو منه وتمسّ كتفه. يلتفت نحوها؛ لتبادره بسؤالها: ما رأيك فى الملاهى؟!.

– فكرة!.

(١٣)

ولا يدرى "زياد" كيف اصطحبها دون أن يعترض، أو حتى يُبدى رأيه، وتبعها دون تفكير!. وفى الملاهى لعب "زياد"، ومرح، وضحك من أعماقه. غمرته السعادة، ونسى الموقف الذى تعرّض له منذ ساعتين. أيضا نسى أنه من ذوى الحاجة!. ولم تكن "سلمى" أقل منه سعادة، ولم تعطه الفرصة ليُثنى عليها، واكتفى بأن رمقها بنظرة امتنان، وقد دعته وأمه وأخته ليلتقوا بأسرتها، ويقضوا معا بقية ساعات النهار، وبفضل "سلمى"؛ تنشأ صداقة حميمة بين الأسرتين.

مـ زال "زياد" سابحا فى نهر ذكرياته، وابتسامة رقيقة عالقة بشفتيه. تدخل سلمى وزهراء". يتبادلان ضحكة. يهتفان باسمه فيفيق على صوتهما. يلتفت نحوهما:

– سلمى!. زهراء!.

ثم يقول فى نفسه:

– "أمازلت أحلم؟!. أمْ!".

تهرول إليه "زهراء" ويتعانقان، ثم يصافح "سلمى". كاد أن يقول شيئا و.. ولكن تبادر "زهراء" مداعبة:

– ماذا تفعل هنا؟!، ولماذا لم تنتظرنا؟!.

التفت إلى "سلمى" بينما احمرّ وجهه خجلا؛ لتضيف "زهراء":

– هيا يا " زياد ". فهناك مفاجأة فى انتظارك.

– مفاجأة!.

التفت إلى "سلمى" علّه يسألها عن المفاجأة، أو تشى بها عيناها، ولكن تدخل "سكينة". وما أن يقع بصرها عليه لتلتقط أنفاسها؛ بينما تضع راحتها على صدرها، ورغم حنقها لكن ذهب عنها القلق. يفاجأ بها زياد فيهتف:

– "ميس سكينة"!.

– قلبنا الدار بحثا عنك!.

– إلا العنبر.

هذا الصغير: كم تستفزّها ردوده ونظرات التحدى التى تطل من عينيه!. كادت أن تصيح فيه ولكنها تماسكت وتنهدت، وكعادتها دقّت الأرض بقدمها تاركة المكان، ولسان حالها يقول:

– أما كنت أستحق إجازة؟!

(١٤)

وفى الحديقة تبزغ المفاجأة، ويا لها من مفاجأة!. أبوه بشحمه ولحمه: إنه لا يصدق. ها هو يهتف باسمه، ويُقبل عليه وفى اندفاعه لهفة. يضمّه إلى صدره ويعتصره. طال العناق. جسد الأب يهتز!. ماذا؟!. إنه يبكى!. أبوه يبكى!. وهل يبكي الآباء؟!. أ ليس الصغار هم الذين يبكون وينتحبون دون الكبار؟!. أمه أيضا تبكى، وكذا والد "سماح" وأمها!. و"سلمى" و.. وأنا كمثلهم!. الكل يبكى صغار وكبار!. لابد أن البكاء للبشر جميعا. تُرى هل يبكى الحيوان أم أنه لا يشعر بالألم؟. مستحيل!. الأحياء جميعا تشعر بالألم؛ حتى الزهور.

الأب يُخبئ عينيه خلف نظارة شمسية. ربما ليستر دموعه وانفعاله!. أ يخجل أن يرى أحدٌ دموعه؟!. وهل تبعث الدموع على الخجل؟!. ملاحظات وتساؤلات دارت فى خلد الصغير. لم يبح بها، وردّدها فى نفسه.

ما زلتُ أبكى. لا أذكر أنى بكيت منذ زمن. لعل عيناى تذرف الدموع الحبيسة، ويبدو أن للبكاء فائدة؛ فقد ذابت الأحزان حين انسابت وانجرفت فى مجرى الدموع، وخلّفت راحة، وإن بقي الشجون. وأيضا يبقى الأمل. هكذا أيقنت السيدة "أميمة": ملاك الدار الرحيم.

لقاءٌ يغلب عليه الصمت، والصمت وحده أبلغ من كل كلام وأفصح من كل لسان، ويكفى أن تنطق الأعين، وتعبّر الملامح، وفوق كلٍّ: يكفى حديث المشاعر الفياضة. وفى صمت أيضا؛ ناوله أبوه هديته.

وداع أيضا خلا من الكلام!. إلا من دعوة ووعد: الدعوة من"زياد" لـ "سلمى" كى تصاحبهم فى رحلة الدار إلى حديقة الحيوان، ووعد سلمى بالمجيء.

(١٥)

الأستاذ "مستور" مدير الدار يعتبر نفسه أبا للصغار، وأمينا على مصالحهم يحاسب على أىّ هفوة أو تصرف قد يعرّضهم لأذى أو ضرر: صغُر أو كبُر. لم يفعل هذا طموحا في ترقية أو لأجر يتسلمه نهاية كل شهر، وإنما مخافة لله، وإرضاءا لديدبانه: "ضميره"؛ الذى يقف له بالمرصاد، ولا يَعفيه من الحساب. ومنذ أن عمل بالدار، وهو لا يدخل مكتبه إلا للضرورة، ويباشر عمله على أرض الواقع دون الاعتماد على مكاتيب، أو شفاهيات، أو تقارير.

يُرسل في طلب "سكينة"؛ التى لم تسلم من لومه وتقريعه لإهمالها بشأن "ياد"، وتدافع "سكينة" عن نفسها؛ مبررة بأن "زياد"؛ لم يخرج إلى الحديقة لمقابلة أسرته كعادته، وعادة الصغار كل زيارة. ويعلو صوت المدير ضاغطا على الحروف:

– تعلمين أن العمل تحكمه نظم ولوائح يجب ألا نتجاوزها، وألا نضرب بها عرض الحائط. كما أننا لا نأخذ الأمور بالظن.

ويضيف فى بعض الهدوء:

– قدّر الله أن نرعى صغارا في عمر الزهور: لهم ظروفهم الخاصة ولهم مشاعرهم وأفكارهم كأطفال لم يشبّوا عن الطوق بعد.

ويستطرد فى صوت متهدج:

– إنهم أمانة فى أعناقنا، ويجب أن نصون الأمانة، ولا نفرّط فيها. فقد يرحمنا الله بهم.

ثم يعود يقول بلهجة حادة:

– هذه المرة الأخيرة. لن أسمح بالإهمال ثانية!. تفضّلى.

لم تبق "سكينة" لحظة. خرجت، أو بالأحرى فرّت هاربة. جعلت تترنح. الضباب أمام عينيها. الذهن مُشوّش، ومطارق تدقّ رأسها، وفي أذنيها طنين!. هل تستأهل كل هذا؟. إنها لم تتوقع أن "زياد" ما زال بالعنبر. خطت. قدماها تتخبط. يبدو أنها فقدت توازنها. ارتكنت إلى الحائط المجاور.

– "ولم أنا بالذات؟!. لم أنا دون غيرى؟!. لستُ زوجة أبيه ولم أغتصب ميراثه..".

زحفت..

– "ماذا أفعل؟".

الضباب من حولها:

– "فلأخرج من الدار. خروج بلا عودة. ولأركن فى البيت و.. ولكن الوحدة قاتلة".

(١٦)

منذ سنين وزوجها يتردد كزائر، ويعتبر البيت مطعما، ونُزُلا يبيت فيه!. ماذا تفعل؟. إنها لم تُنجب حتى الآن، وهى مستسلمة لإرادة الله، وقد يحدث يوما فهما قادران على الإنجاب. ماذا تفعل دون أولاد، أو حتى طفلا يملأ عليها البيت والحياة؟. وكيف تدع زملاءها وزميلاتها بعد كل هذي السنين؟.

ساقتها قدماها إلى حيث زميلتها الرءوم مرفأ الأمان، وها هى تلقاها بابتسامتها الهادئة المتفائلة؛ لتحكى لها من بين نشيجها ما لقيته من المدير بسبب المدعو "زياد".

– المدعو زياد!.

ومضت فى حديثها ناعتة إياه بأنه غريب الأطوار، والتصرفات، والنظرات و.. وعندئذ تعترضها "أميمة"؛ موضحة أن "زياد" ما هو إلا حالة خاصة. طفل فوق

العادة، وفكره يسبق سنّه، علاوة على عزّته، وكبريائه، واعتداده بنفسه ونخصه، ومؤكدة أن نظراته تنبئ عن الثقة بالنفس، وتوحي بالتمرد والتحدّى.

– ماذا؟!. يتحدى من؟!.

– لستُ أدرى. وما يحيّرنى: "بريق عينيه".

في الليلة ذاتها؛ لازمته "سكينة" على مدى مباراة كاملة: "نهائى كأس العالم". لم تكن تدرى أنّ المباراة تستغرق حوالى ساعتين قبل أن تسأله..

– "ساعتين!".

أىْ: سنتين بالنسبة لها. إنها لا تحتمله دقيقة واحدة؛ فما بالك بساعتين!. لا حيلة. لكم شعرت بالملل حين كان "زياد" مندمجا بكل كيانه فى أحداث لمباراة. يصفق، ويشجع، ويصيح، ويعترض و.. يضرب كفّا بكف، وكم ستغرب عدم تتبعها وانصرافها عن المباراة الأهم!. ولمّا حان وقت النوم؛ طلبت منه أن يكتفى بما شاهده؛ حدجها بنظرة غيظ، ولم يكلف نفسه الرد وأشاح بيده!. كم يستفزها!.. تتماسك: النظام يا بُنىّ.

– يُمكن تغييره؛ مادام في غير مصلحتنا.

ولا تدرى "سكينة" بم تردّ، ولا تملك إلا أن تتنهد:

– "اللهم طوّلك يا روح".

وتعود لتضع يدها تحت خدّها.

(١٧)

يصحو "زياد" وعلى ثغره ابتسامة. يبدو أنه حلم أحلاما سعيدة، وما لبث أن فتح درجه الخاص، وتناول هدية والده. أسرعت دقات قلبه!. فتحها "كتاب واسطوانة كمبيوتر!": الكتاب عن كرة القدم: قوانينها وفنونها. جعل يقلّب الصفحات بين تفكيره:

- "لا بأس بالكتاب؛ فأبى الذى قال":

- "لا بد لكل لاعب أن يعرف قوانين اللعبة، ويعرف أحكامها بكل شىء عنها".

وضع الكتاب جانبا، وأمسك بالاسطوانة. تأملها: تُرى ما محتوياتها؟ أخرج جهاز "الكمبيوتر" الخاص به. فتحه، وأدخل الاسطوانة. ماذا؟!. لعبة كرة القدم!. شرد. بانت الحيرة فى أساريره. تذكر والده. وحاله. أدمعت عيناه، وفى هذه اللحظة أتى إلى سمعه صوت الكروان:

- "المُلك لك لك يا صاحب المُلك".

هدأت نفسه نوعا. زايلته الحيرة رويدا، وانبسطت أساريره، وحلّت ابتسامة تفاؤل. وأمل! و.. أصدرت عيناه البريق العجيب!.

ترجّل الصغار من السيارة. عينا "زياد" على تمثال نهضة مصر الراض أمام حديقة الحيوان. عرج ناحيته. وقف يتأمله فى إعجاب. لمح قبّة جامعة القاهرة والساعة. أطرق. كان التمثال بميدان رمسيس هكذا قال أبى، ولكن لم تمّ نقله على رأس الطريق الموصّل إلى الجامعة؟. هل وُضع هنا سدفة؟. كلا بالطبع. أ يعنى أن العلم هو الطريق إلى النهضة؟.

كانت "سلمى" ترقبه. تعجبت لطول وقفته. إنه لا يدع شيئا إلا وتأمله. ولا بد أنه يفكر بشأن التمثال. أيقظته من شروده؛ حين هتفت باسمه. تلفت من حوله، وما لبث أن عرج متقافزا إلى بوابة الحديقة، ومن خلفه كل من: " سلمى وزهراء وسماح ".

الشوق يداعب الزائرين لرؤية الحيوانات والوحوش الحبيسة، والزحام على أشده أمام بوابة الحديقة. كل يُزيح الآخر ليسبقه فى الدخول!.

يُغلت "زياد" مع من أفلت، ويجرفه التيار مع الصغار المندفعين. عينا سلمى" عليه، وقد علاها الفزع. ويبدو أنه نسى حاله فانطلق مع الأصحّاء. يحاول أن يتقدمهم وكأنه في سباق!. ولم تهدأ "سلمى" عن الصياح الذي ضاع بين الصخب والضجيج!.

ويقع ما كانت تخشاه؛ إذ يتعثر زياد فى عصاه وينكفئ، وما تلبث أن تدفع "سلمى" الأجساد وتشق الطريق إليه. يحاول أن يُلملم نفسه.. تنحنى عليه، وتمدّ يدها لتساعده على النهوض. ولكن يأبَى "زياد"، ويُبعد يدها. لم تدهش أيٍ يداخلها الحرج؛ بل رمقته بنظرة إعجاب.. استطاع أن ينهض معتمدا على نفسه وعصاه. تبادلا نظرة. وكأنه يقول لها: "ها أنذا وقفت وحدى".

(١٨)

سارا معا. إنها تُجيد قراءة أفكاره، وما يجول بخاطره، ويعتمل فى نفسه، وتعرف أنه مرهف الحس؛ فلم تشأ أن تجرح مشاعره والتزمت الصمت. تعرف أيضا أنه يُجيد الاستماع لها، وأنها مؤثرٌ فعّالٌ حيالَه.

أى لديها المقوّمات لأن تستثمر الموقف لصالحه.

يستجيب لها حين تدعوه للجلوس على أحد المقاعد المنتشرة بالحديقة. يبدو أنه استعاد هدوءه. عندئذ ينساب حديثها الرشيق عما يبعث على التفاؤل، والأمل، وحب الحياة. لم تغال أو تهوّن؛ متخذة الوسط بين هذا وذاك. موضّحة أنه ما زال فى مرحلة العلاج. أي أنها مسألة وقت ليس إلا، وغدا يتحقق ما يصبو إليه، ويتحرر من عجزه، وينطلق في طريق الحياة، وليقتني عصاه كذكرى!. وحين يزول العائق يمكنه أن يجرى ويلعب؛ وقتما يشاء، وكما يحلو له؛ مواصلا سعيه نحو الهدف.

– ومتى يأتى الغد؟!.

- كل آت قريب. المهم أن تتذرع بالصبر.

تبدّل "زياد"، أو أن الحياة تبدلت في عينيه!. استطاعت "سلمى" بشخصيتها الآسرة، وسحر بيانها أن تؤثر فيه، وتُمحي من نفسه آثار الحادثة التي وقعت له منذ دقائق!. وفي ثنايا الكلام مسّت وترا حساسا لديه كاد مجهولاً، أومُهمَلا، أو تائها في ضباب الوهم؛ ليفيق زياد من خيالاته، والتحليق في فضائه اللانهائيّ، ويحطّ على أرض الواقع مواجها الحقيقة الماثلة مهما كانت مرارتها!.

ولم تَدَعْهُ "سلمى" في أزمته؛ التي تبدّت آثارها في أساريره، ومضت تقوّي من إرادته، وتشدّ من عزمه، وتحقنه بجرعات الثقة التي تُشعل حمينه؛ فيجدّ السعي، ويتجدد الأمل، وما من شكّ أن تزول المرارة، ويحلو مذاق الحقيقة!.

وعلى مدى حديث العقل والقلب؛ استعاد "زياد" هدوءه، واستشعر السكينة؛ لتشرق ابتسامته، وإن لاح في عينيه همّ المسئولية؛ فهذا ما يعوزه في المُقبل من أيامه.

وقاما إلى ما سعيا من أجله. يطوفان الحديقة، ويجولان في ربوعها، ويقطعان الوقت أمام أقفاص الحيوانات، أو سجونها العملاقة. شاهدا الدببة، والنسانيس، والنمور، والزراف، والفيلة، والحمير الوحشية المخططة، وجبلاية القرود و. وأفاضت "سلمى" بحكاياتها ومعلوماتها عن تلك الحيوانات. حكايات مثيرة، ومعلومات لا بأس بها؛ بما يَلفت نظر "زياد"، بل ويستشعر الغيْرة التي لم تخف على "سلمى" دوافعها:

- "إنها في مستهل المرحلة الثانوية فمن أين لها بكل هذا؟!".

سألها كما توقعت؛ فقالت: الكتب.

- الكتب؟!.

– نعم. لدينا مكتبة في البيت، وأقضي وقت فراغي في القراءة.

– الكتب عظيمة جدا!.

– وأعظمها جميعا: كتاب الله.

وفي هذه اللحظة أتى إلى سمعهما زئير الأسد؛ لتقول سلمى مداعبة:

– الأسد يدعونا. هيا.

(١٩)

دخلا عرين الـ. معذرة. قفص الأسد، وانبرت "سلمى" تعدد أسماءه: "ليث، سبُع، ضِرغام، غضنفر، هِزَبْر، وأسامة، ورد، وقسورة وحيدر و..

– كل هذه؟!.

– وهناك أسماء أخرى.

وأضافت "سلمى" معلومات شيقة عن طباع الأسد، وعزّته، وعفّة نفسه؛ فهو لا يأكل إلا من صيده، ويعفّ عمّا يتبقى منه؛ فلا يعود إليه مهما نشب الجوع مخالبه في معدته!. وباغتها زياد بسؤاله:

– أتقصدين هذا الأسد الرابض خلف القضبان؟. أم الأسد ملك الغابة؟

– إنها طبيعة الأسود جميعا!.

– عدا هذا.

يبدو أنها لم تدرك ما يعني؛ فأضاف موضحا:

– لكنه لا يأكل من صيده، وليست له مملكة.

لم تعلّق "سلمى"، وبدت في عينيها الدهشة والتعجب؛ ليستطرد "زياد":

– نعم. لأنه محبوس، وعاجز، ولا يقدر أن يُنقذ نفسه. تأمليه: إنه مسكين وحزين؛ لأنه لا يملك حريته. أين قوته وإبائه وعزة نفسه؟! لو كان أسدا بحق، لكشّر عن أنيابه وزأر، ولكسّر القضبان، واستردّ حريته وكرامته.

ويزأر الأسد فى هذه اللحظة. كاد "زياد" أن يضحك. و"سلمى" ترقبه وقد علاها القلق.

– إنه ليس زئيرا. لو كان بحق لفزع كل هؤلاء، ولأصابهم الذعر، وفرّوا هربا. بالعكس: إنهم يتسلون بمشاهدته، ويضحكون عليه. إنه ليس أسدا؛ بل أراجوز، أو مهرّج سيرك!.

"سلمى" مشدوهة مأخوذة. قلبها ينتفض من فرط الرهبة، ولا تستطيع أن تتحكم فى أطرافها التى ترتجف. لقد رأت "زيادا" آخر؛ فعيناه ترسلان البريق العجيب بينما يتأمل القضبان. وبعين خياله يرى نفسه خلفها بدلا من الأسد. "سلمى" ترقبه وقد اشتد هلعها. تراه يُمسك بقضبان الحاجز أمامه. وما يلبث أن يهزّه مفاجئا الجميع بصياحه:

– نعم. سأحطم القضبان!. سأحطم القضبان!.

وتنادى عليه "سلمى".. بُحّ صوتُها، ولم يُنصت لها؛ كأنه لا يسمعها، أو أنه فى معزل، وما زال يُطلق صراخه؛ بين لهثه، وتومض عيناه وكأنما ترسل الشرر:

– سأحطم القضبان!. سأحطم القضبان!.

ويرحمه القدر؛ إذ تميد به الأرض، ويُغشى عليه، حين تتلاقى أعين الحضور فى نظرة حائرة مُشفقة!، وتترقرق عينا "سلمى" بالدموع.

تقرأ "أميمة" تقرير المشرفة وكأنها تشاهد فيلما مثيرا!.

(٢٠)

أطرقت تفكر. لم تُرسل فى طلب "زياد" هذه المرة، ورأت أن تسعى إليه. لم تسأل عنه، فهي تعرف أنه هائم على وجهه فى حديقة الدار، أو جالسا فى رحاب زهرة البنفسج؛ الذى يطيب له مناجاتها، ويُهرع إليها كلما ضاق خناقه وفاضت أحزانه؛ لينعى لها دواعى جراحه، ويبث لها أسباب لواعجه وأحزانه:

ـهي دوما تُصغي إليه. لا تسخر منه، ولا تخدش حياءه، أو تجرح كرامته. لا ـرعى ولا تزبد، ولا تلومه أو تنهره، وتبكي معه بغير دموع، ورغم شجونها تبتسم له، ومع سكوته تخفف لوعته وتهدئ روعه. إنه يحب ذاته فيها، ومع شعوره بالأمان في رحابها؛ فهي مرآته، وتوأمه. إنهما روح واحد في جسدين!.

تم يتبرم "زياد"؛ فلم يشعر بأن "أميمة" داست معبده، واقتحمت عليه خلوته، وكأنه يعلم أنها ستأتي. والدليل أنه لاقاها بابتسامة ترحيب. مشيا معا في دروب الحديقة، والشمس الغاربة تُلقي بأشعتها على محياهما فتكسوهما بلون اشفق.

كان "زياد" مشحونا، ولكن ليس مُشوّش الخاطر، والفكرة واضحة في ذهنه. ـم يستهل كلامه بمقدمة، وإنما جرى على لسانه ما يُحسُّه، وما تُمليه عليه فطرته ومشاعره؛ ليفاجئ "أميمة" بتساؤلات عدة:

– "أي مبرر لأسر الحيوان، وسجن الطير؟، وما الذنب الذي اقترفت، والإثم الذي ارتكبت؟. وما الذي يَفيده الإنسان، إلا إذا كان غير سويّ؛ يتلذذ بمشاهد العذاب!".

ويستطرد "زياد" موضحا:

– "لقد خلق الله الحيوان والطير لترتع في الخلاء، وتَهيمُ في الفضاء. خلْق الله في دنيا الله. لم يخلقها ليعذبها الإنسان ويستذلها، ويقيّد حريتها، ثم يسخر منها، ويضحك عليها. أي ظلم هذا، وأي قسوة، وأي حق له في مطاردتها، واقتناصها، وإيداعها السجون؟!، وماذا جناه صغارها لكي تفزع، وتفجع في أبويها؟، وكيف تعيش بعد زوال الأمان بفعل الصياد: الإنسان؟".

– "لقد رأيتُ أسد الحديقة يصرخ، وصراخه يهز المشاعر، ويُدمي القلب. نعم. إن ما سمعته صراخا وليس زئيرا؛ لأنه محكوم عليه بالأسر حتى الموت.

أسد الأحراش: هو الذى يزأر، وزئيره يزلزل الغابة، ويخلع القلوب: فهو الملك الحاكم بأمره".

(٢١)

"أميمة" على يقين أن "زياد" لا يُدرك ما يقول ولا يعنيه، وأنّ كلامه نابع من فطرته التى فطره الله عليها، وليست التجربة والفكر الذى اكتسبه من الحياة، ولذا لم تشأ أن تستوقفه، أو تقاطعه؛ بل أرسلت إليه نظرات التشجيع لينفث عن نفسه، ويخرج ما جثم على صدره وكاهله.

ومع ذلك فإنه جذب انتباهها لترمقه بنظرة إعجاب؛ فما قال إلا الصدق، وما نطق إلا الحق، وإنه يوافق رأيها، ويطابق وجهة نظرها.. وجعلت تسائل نفسها:

– "لو لم يأبَ المرء أن يخضع ويستسلم؛ فأنَّى له أن يغيّر المنكر وقد طغى وتجبّر، ونخر الحياة قاطبة، والدنيا بأسرها؟".

ورأت "أميمة" بريق عينيه؛ حين قال بحرارة:

– غدا يحنّ الأسد لماضيه؛ فتلتهب حميته، ويدمّر القضبان، ويلتقط أنفاس الحرية. أؤكد أن الغد سيأتى، وسيحدث ذلك يوما.

ويفترقا و"أميمة" كالمأخوذة تشيّعه ونظرة إكبار تُطل من عينيها!.

(٢٢)

يغلب الكرى عينى "زياد"، وما أن تنتظم أنفاسه؛ ليرى أنه بداخل كهف دامس الظلام إلا من بصيص!.. فُرجة نور هنا أو هناك بالكهف. يرى امرأتين تُقبلان عليه. الكبيرة تتقدم الصغيرة؛ أخال أنهما "أميمة وسلمى": كلاهما تتشح برداء فضفاض وخمار أبيض اللون. يقصدان "زياد" الذى يقف مشدوها في آخر الكهف. تقفان قبالته. تصافحه "أميمة"، ثم تمدّ "سلمى" يمينها بالكتاب. يتناوله "زياد" بيمينه. يُشعل "زياد" عود ثقاب؛ فتختفيان!. يقرّب

عود من فتيل شمعة؛ فيُضاء الكهف. يبدو مكتب صغير، ومقعد، ومكتبة صغيرة أيضا. وعصاه!. يجلس "زياد" ويضع الكتاب أمامه. إنه كتاب الله!. فجأة!. يُفتح بابُ الكهف ويرتطم بالصخرة. يندفع الريح فتنطفئ الشمعة؛ فيبدو طريقا نيّرا يوصّل إلى باب الكهف. يُلقى "زياد" نظرة إلى العصا. يخطو خطونها. يواصل سيره حتى باب الكهف. يقف بالمدخل. يُنصت إلى دعاء الكروان. يفترّ ثغره عن ابتسامة؛ بينما ترسل عيناه الوميض. يُسمع زئير الأسد وكأنما يأتى من أعماقه!. يتبدّى في محياه العزم والصرامة، وما يلبث أن ينطلق إلى الخارج، ويعدو بأقصى سرعته رغم حُلكة الليل. يأتي إلى سمعه صياح وصراخ الوحوش. أوضحها صراخ الأسد و.. "زياد " يسابق الريح الذى يهدر ويزمجر. يدخل الحديقة ويبلغ سجن الأسد. يتلفت من حوله في حذر. يتسلل إلى الداخل، ويقفز إلى باب القفص. الأسد يروح ويغدو خلف القضبان. تتلاقى عيناهما. في عينىْ الأسد رجاء أقرب للتوسل!. وفي عينى 'زياد" تصميم وتحفز. يحطم "زياد" القُفل؛ فينطلق الأسد هاربا من السجن. ويعدو "زياد" فى طريق ضابى. تبدو الأشجار كأنها أشباح تتسابق. يأتى إلى سمعه صراخ العصافير. يتوقف. يعود أدراجه. يتأمل عصافير الكنارى داخل القفص المُدلّى. صراخها يصمّ أذنيه. يدنو من القفص. يشعر بقوة تُبعده. يقاوم، ويقاوم. الشيء أقوى منه؛ بل إنه يُقصيه، ثم يقذف به بعيدا بعيدا. صراخ العصافير يدوّى فى الفضاء. يلتفت ناحية القفص. ماذا؟!. لقد اختفت العصافير، وما زال صراخها يطنّ فى أذنيه!.

(٢٣)

يتقلب "زياد" فى فراشه، وأخيرا يصحو لاهثا، وما زالت العصافير تستصرخه، وتستغيثه. يقعد. يهز رأسه، بينما ينطق الشهادتين. يُطرق قليلا لعله يسترجع الحلم. يبتسم. يأتى إلى سمعه دعاء الكروان. يُنصت إليه مبتهجا، ثم يشقّ أذان الفجر السكون. يشعر بالصفاء يتسلل إلى صدره. يلتفت إلى العصا. يفكر قليلا. يُغبط نفسه لفكرته!. يقف على رِجله السليمة، ويضع المصابة على الأرض. يحاول أن يعتدل فى وقفته. يترنح قليلا. يحاول أن يخطو ولكنه يُخفق. يكرر المحاولة دون جدوى. نظر فى فضاء القاعة. يتنهد، وما يلبث أن يتناول العصا، ويعرج بين الأسرّة، ويذهب إلى حيث المياه. فيتوضأ، ويصلى الفجر.

وفى الصباح الباكر يتوجه إلى حديقة الدار، ويجلس بالقرب من زهرة البنفسج. يتذكر "سلمى" وحوارهما عن المكتبة وقراءة الكتب. يودّع زهرة البنفسج، ويعرج حتى مكتبة الدار. يقف مترددا أمام بابها المفتوح. أخيرا يطرق طرقات خفيفة. تدعوه أمينة المكتبة للدخول. يخطو نحوها. تبدو رقيقة هادئة والابتسامة لا تفارق ثغرها وملامحها. يحييها وتردّ تحيته وترحّب به. يهتف باسمه.

وتقدّم له نفسها:

– هبة الله رشدى.

يتبادلان ابتسامة. يستأذنها؛ فتأذن له. يشكرها بانحناءة. يُلقى نظرة شاملة على محتويات المكتبة: حيث رفوف الكتب ولافتات صغيرة تعلوها، ولافتات كبيرة تحضّ على القراءة، وتحثّ على الاطلاع، ونضد مستديرة حولها مقاعد. والهدوء يعمّ المكان. المكتبة كأنها معبد!.

يقف أمام أحد الرفوف. "هبة" ترقبه. طالت وقفته. يبدو حائرا مترددا. وما لبث أن تنهض لمساعدته. سألته عن طلبه. شرد قليلا. تذكر وصف "سكينة" له نعته به. سألها كتابا يحوى معانى الكلمات.

— تقصد مُعجما.

— معجم!.

تعها إلى رفّ المعاجم العربية: لسان العرب، ومختار الصحاح، والمصباح المنير، والمُنجد و.. سحبت أحدها، وجلست تعلّمه كيف يستخدمه فى الكشف عن الكلمات. شكرها، وسرعان ما فتح المُعجم، وكشف عن كلمة "تمام". ماذا؟!. تعنى: السيد الشجاع السّخىّ ، والملك العظيم الهمة، والأسد: الأسد أيضا!، وكشف عن: "وحيد عصرك": أى متفرد فى زمانك كالأبطال والروّاد و. معان رائعة!.

إن قصدت "سكينة" السخرية؛ لكن علمته ما تستحق عليه الثناء!.

طلب استعارة المصحف الشريف، ولكنها أعطته إياه هدية من الدار. قبِل "زياد" الهدية وفرح بها فرحا عظيما. ما أعظم المكتبة!. وأمينتها الوادعة؛ التى رحّبت به كصديق جديد للمكتبة، ويغادر "زياد" وهو منشرح الصدر، وفى حوزته كتاب الله؛ عازما على قضاء أوقات فراغه فى رحاب المكتبة، بين كتبها الزاخرة بكل صنوف الثقافة والمعرفة.

ضمّ "زياد" كتاب الله إلى صدره وكأنه يضمّ فرخا صغيرا!. كم غمرته الفرحة، وكم كان تشوّقه للقراءة و.. تسوقُهُ قدماه وعصاه إلى عُشّ غرامه عند زهرة البنفسج الحزينة الشاردة. الجو صحو. تهبّ نسمة تتمايل على أثرها الزهرة، كأنما تعبّر عن سعادتها بلقائه.

تغشى الرهبة "زياد" حين فتح المصحف الشريف. ما أجمل رسمه وخطه!. ويتلو بعض السور. ما أجلّ كلام الله!. وما أقيم آياته البينات وأعظم معانيها!. يتسلل الهدوء إلى قلبه وجوانحه، وأحسّ كأن شعاعا يومض فى ذهنه!.

– "شكرا سلمى. شكرا هبة الله!".

اختار "زياد" للمصحف المكان الأقرب إليه. لمح هدية والده. فكر قليلا. أخذها وانطلق إلى قاعة التسلية. لم يذهب إلى ركنه المعهود.

(٢٤)

تبادل "عصام وسماح" نظرة تعجب وابتسامة. تصفّح "زياد" الكتاب بعض الوقت، ثم طرحه جانبا. "سماح وعصام" يتابعانه فى شغف. وضع "زياد" الاسطوانة بجهاز "الكمبيوتر". فتحه. أشارت "سماح لعصام" بأن يذهب إليه. خطا "عصام" فى تردد. وقف بجانبه. صاح "عصام" حين وقع بصره على شاشة "الكمبيوتر": مباراة كرة قدم!.

التفت "زياد" ناحيته وابتسامة تزيّن شفتيه. معقول!. تشجع "عصام". وجلس بجانبه ليشاركه اللعب و. ولكن فاجأه "زياد" بأن أغلق الجهاز، ثم أخرج الاسطوانة وناولها لـ "عصام" الذي أخذته الدهشة.

– يمكنك أن تلعب مع "سماح".

لم يعلّق "عصام"، ورجع إلى "سماح"، وسرعان ما اندمجا فى المباراة؛ حين كان "زياد" يسأل نفسه: ماذا يعني أبي باللعبة؟!.

لم يقتنع والد "زياد" بالزيارة السالفة؛ فلم تُشبعه، ولم تَشف نفسه، وتطفئ لهيب شوقه. وينطلق بسيارته عصر يوم إلى الدار، ويُرسل فى طلب "زياد"؛ الذى ما أن ألقى عليه الخبر، لتنبسط أساريرُهُ، ويصيح في فرحه:

– أبى!. مستحيل!.

يختطف "زياد" العصا، ويعرج مهرولا، إلى حيث أبيه فى غرفة الاستقبال. يتعانقان عناقا حارا. ويدمعان و.. يتحاوران. ويتذكران، ثم يعاتبه "زياد"، مؤكدا له يحب ممارسة كرة القدم، وليس التثقيف بشأنها، وماذا تفيد القراءة بدون لعب؟!. إنه يريد أن يكون لاعبا، وليس مدربا. أطرق الأب برهة وبانت الحيرة على وجهه. وفى تردد: أخبره بأنه اشترى الكتاب قبل أن... ويعفيه زياد من الحرج مقاطعا:

– واللعبة!. أ هى من أجل التسلية وتزجية الوقت وتضييعه؟!. أعرف أنك تريد ذلك، ولكن ما لا تعرفه أننى مشغول. مشغول للغاية، وليس لدىّ وقتا لتضيّعه. الأيام تجرى ، وكلها من عمرى إلا. إلا إذا نسيت وعدك.

– إننى لا أنسى وعدا قطعته على نفسى، وإن كلفنى حياتى. ولكن. لكن الظروف أقوى منّى. ومنك.

– الظروف أقوى منك أنت، ولكن ليست أقوى منّى. معذرة أبى. يبدو أنك ما زلت ترانى طفلا، يُمكنك أن تلهيه أو تسليه بلعبة، وليس غريبا أن تهديني يوما ما بـ"دبدوب"، أو "بطبوط"، أو دُمية تقول "بابا، وماما" و..

وفى تلك اللحظة يدخل "عصام" متردد الخطى؛ ليشكر "زياد" ويُعيد إليه الاسطوانة. لم يأخذها "زياد"، وسأله رأيه فى محتواها.

– لعبة مسلية أعجبتنى كثيرا.

– فهي لك إذاً.

– ماذا؟!.

– اعتبرها هدية من صديق لصديقه.

وما يلبث أن يعانقه "عصام"، ويطير بالهدية، والدنيا لا تسعه من فرط الفرحة. والأب ينقل بصره بين الصديقين دون تعليق.

يلتقي الأب "أميمة"، ويعلن لها عن مخاوفه بشأن ابنه الذى يسرف في خيالاته وأحلامه، وتطمئنه "أميمة" أنها حالة عادية لا تدعو للقلق؛ موضحة أن مهمتهم تنحصر فى التوفيق بين حالة المريض، وقدراته الخاصة ليتكيف مع واقعه، وإنهم لا يألون جهدا فى تحقيق ذلك. والله الموفق.

(٢٥)

"زياد" أمينٌ مع نفسه، والصدق مذهبه. لم يكذب قط، ولقد عنِي ما قاله لأبيه. إنه مشغول بالفعل، وليس من وقت يضيعه فى التسلية واللهو. فها هو ذا يُقبل على العلاج الطبيعي؛ فيركب الدراجة الطبية، ويديرها فى حماس شديد؛ وكأنه يعوّض حرمانه من الجرى. وينتقل إلى جهاز آخر، وأيضه يُبعد يد الطبيب رافضا مساعدته، ويبتسم الطبيب الذى شدّه البريق العجيب الذى ينبعث من عينيه.

وبعد الاغتسال يقصد "زياد" المكتبة، وفى هذه المرة يأخذ معه كراسة وقلما، ويمكث فترة لا بأس بها يقرأ، ويسجل ما راق له من المعلومات الشيقة، والنوادر، والطرائف، والأقوال المأثورة، وأحيانا يشده قلمه ليعبّر عن مشاعره، وما يجول بخاطره، وبعد كل هذا يستعير كتابا لقراءة المساء، حين يتسامر أقرانه بالحكايات، ويظل في قراءته حتى يأخذه النعاس، ويصحو وقت الفجر فيؤدى الفريضة،

ويعقبها بتلاوة ما تيسر من آى الذكر الحكيم.

ذات يوم كان "زياد" فى ضيافة محبوبته زهرة البنفسج، حين سمع دعاء الكروان! رفع رأسه باحثا عن ذلك الطائر الذى يهز مشاعره بصوته العذب. لم يره. ولكن تطوف "سلمى" فى مخيلته ليزدان ثغره بابتسامة، ويُنصت إلى صوتها الذى يتردد صداه فى قلبه:

- "ستقدر يوما يا زياد..".

وما زال يسأل "زياد":

– "متى يأتى ذلك اليوم؟. متى؟! ".

(٢٦)

جاء موعد الغداء. حضرالصغارجميعا، وجلسوا إلى المائدة إلا "زياد" يا لهذا الولد الشارد!. ما أن يظهر ليختفى. أين ذهب؟!. وتبحث عنه "عايدة" فى كل مكان، ويطول بها البحث، ولم تعثر له على أثر!. وتبلغ "سكينة" الخبر ليصفرّ وجهها وتلحق الرجفة بأطرافها:

– ماذا؟!. هل بلعته الأرض!. لم أعد أحتمل. سأبحث عنه بنفسى. إمّا أنا وإمّا "زياد!".

ثم تقول فى نفسها:

– "مصيبة لو أنه خرج من الدار!".

أسرعت إلى البواب، الذى حدجها بنظرة غيظ، مؤكدا أن لا "زياد"، ولا غيره غادر الدار.

– "أين ذهب؟!. أ لَبِسَ طاقية الاخفاء؟!".

وأخيرا تدخل الحديقة، وهى متيقنة أنه غير موجود، ولكى تُقسم أنها لم تترك مكانا بالدار. ماذا؟!. لا يمكن!. آخر ما توقعته!. لقد لمحته واقفا في مكان غير مطروق بالحديقة!. رُدّت إليها روحها. ولكن نظرت إليه شزرا:

– "لن أدعه هذه المرة. سألقنه درسا. إنه لا يبالي بنظام الدار، ويحطم لوائحه دونا عن أقرانه. يجب أن يعاقب. أو..".

يبدو أنها تذكرت صرامته وبريق عينيه. تنهدت و.. عدلت عن فكرتها!.

– "لكم حار أمرى بشأن هذا الولد العنيد. المتمرد".

خطت نحوه. رآها فلم يهتز له رمش!. لم تلاحظ "سكينة" أنه يقف وحده دون العصا:

– أ أنت هنا!. لقد بحثت عنك في كل مكان و.

– إلا الحديقة!

– أيضا!.

تتنبه "سكينة" لما يحاول أن يفعل فتفزع.

– ماذا تنوى؟!. أ تريد أن تخطو بدون العصا؟!. مستحيل!.

– المهم: المحاولة.

– ستفشل.

– من الذى سيفشل: أنا، أم المحاولة؟.

وعاد "زياد" ليواصل محاولته.

– كُفّ عن اللعب. وهيا للغداء.

– أنا لا ألعب، ولن أكفّ.

لا تحتمل "سكينة"، فتنتهد من أعماقها كأنما تفرغ شحنتها، ثم تدير على عقبيها، وتعود من حيث أتت؛ حين مضى "زياد" فى محاولاته، ورغم إخفاقه؛ فإن بريق الإصرار يتألق فى عينيه.

(٢٧)

وتحت المظلة بحديقة الأسماك تعاتبه "أميمة" فى بعض المواقف، وعلى الأخص ما بدر منه لوالده، وينبرى "زياد" مدافعا عن نفسه:

– بالله عليكم كيف أضيّع وقتى فى تحريك لاعبين على جهاز "كمبيوتر؟". أريد أن ألعب كرة قدم!. أريد أن أصول وأجول، وأراوغ الخصم، وأسدد على المرمى، وأسجل الأهداف. ما أجمل أن تهزّ الكرة الشّباك!. إننى لا أجد

غسى ولا أحقق ذاتى إلا داخل الملعب، وإنى على ثقة من العودة إلى لمستطيل الأخضر، وأستعيد مستواى و.. وتصفق لى الجماهير وتهتف باسمى. زمان كنت أفرح باللعب مع بطبوط ودبدوب وكتكوت. الآن كبرت، ولا وقت عندى للهو والتسلية، ولن أضيّع لحظة واحدة!.

كانت "أميمة" تُصغى إليه فى اهتمام، وقد تزاحمت فى أساريرها معانى: الإعجاب والإكبار. والقلق. وما زال يشدّها بريق عينيه!.

رتبط "زياد" بالحديقة، وزهرة البنفسج توأمه؛ فهو يختلف إليها وقتىْ لشروق والغروب. إنه يجد نفسه فى رحابها والهمس إليها. كما يستمع إلى .غاء الكروان الذى يجلجل فى الفضاء، ويبعث في نفسه التفاؤل، والأمل.

وبدت المكتبة فى نظره؛ ذلك البستان الذى لا ينضب معينه، والذى يقطف من ثماره كل ما لذّ وطاب، والنابغة المتواضع الذى يهش لاستقباله، ويسعد بلقائه، ولا يضنّ عليه بعلمه. لقد تعلّق زياد بالمكتبة تعلّق الغريق بالحياة!، ولا عجب أن يقضى الساعات فى محرابها؛ مُبْحرا في نهر كتبها الفيّاض. ينهل من عذب عُصارتها، ويقول هل من مزيد وكأنها ماء الحياة!.

وكانت "هبة" بمثابة الرّبان؛ الذى يُبحر به فى طريق السلامة إلى حيث برّ الأمان. وقد غاصت "هبة" فى أعماقه، وقرأت عالمه، ووقفت على بُغيته!. أى أنه أصبح كتابا مفتوحا بالنسبة لها. وعليه فما أيسر أن تنظم له قراءاته، وتنتقى من الكتب ما يناسب مداركه وحالته. ولكم أعجبت بأفكاره وعُمق رؤيته، وكم اجتذبها وميض عينيه؛ لتؤكد أنها لم تصادف مثيله على مدى عمرها!.

ومع حفاظه على أداء الصلوات؛ اشتد شغفه بتلاوة القرآن الكريم. وتدبّر معانيه والتمتع بحلاوته. وكان يحفظ الآيات التى تمس حياته، ويجد فيها

ضالته؛ لتكون هاديا له على مرّ الأيام: "كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ".

(٢٨)

كانت مهمة "أميمة" نحو "زياد" أن تبذل جهدها فى تحقيق التوازن بين قدرته وطموحه. وفى إحدى الجلسات أعاد عليها "زياد" ما قالته فى الأمل؛ إذ أنه يربط بين الإنسان وحياته، ولا بد للإنسان من أمل، ولا معنى للحياة دون أمل.

بدت ثغرة لـ "أميمة" فقالت فى ثقة:

– الأمل يا "زياد"، وليست الأحلام والخيالات.

سكت "زياد"؛ فظنت "أميمة" أنها أمسكت بأحد الخيوط الذى يُعينها فى انجاز مهمتها، ولكنه يفاجئها بردّه:

– لولا الأحلام والخيالات ما كانت الاختراعات.

– ماذا؟!.

– كان الاختراع حلما، ثم فكرة؛ فأملا. وبالعمل والمثابرة يُصبح الأمل واقعا، والحلم حقيقة.

ثم أضاف مؤكدا:

– لولا الأحلام، ما طار عباس بن فرناس.

– ولكنه وقع.

– وبقيت الفكرة، وبدت حقيقة، وسافر الإنسان إلى الكواكب.

شردت "أميمة"، ثم ألمحت:

– لا تنسى أننا نقف على الأرض، ولنعترف بالواقع و.

- بل إنى أعايشه؛ فأنا الذى أحسّ بالعجز، وكنت أملأ الملعب عدْوا. والآن عتمد على العصا. ولا أستطيع أن أخطو بدونها.

– قدر ومكتوب يا "زياد".

– ولن أستسلم. لقد كتب علىّ القتال، وسأواجه العجز وحدى. أجل سأكسّر العصا كما كسّرت القضبان.

تهتف "أميمة": قضبان!.

(٢٩)

ويدعها "زياد" دون استئذان، حين أطلت من عينيها نظرة قلق؛ محدثة نفسها:

– "تُرى فيم يفكر؟، وماذا ينوى أن يفعل؟. إنه يرفض واقعه، ويمقت حاله!، ولا يتوانى عن التحليق فى فضاء خياله الخصيب!. لكم أخاف عليه من نفسه!، وأخشى أن يكون ضحية أحلامه، ويسقط كما سقط عباس بن فرناس!".

"زياد" يتلفت من حوله. يجب أن يأوى إلى مكان آمن بعيدا عن. عن عينىْ "سكينة!". خفّ إلى حيث الزهرة رفيقة شجونه. بودّه لو جرى، أو تواثب إليها، ولكن ما باليد حيلة، أو بالأحرى رِجله!.

وقف يرنو إلى الزهرة كأنما ينبئها بما سيُقدم عليه. قلبه يَخفق من بين ضلوعه. زمّ شفتيه، وبرقت عيناه بالطبع. لقد اتخذ قراره ولن يتراجع، وقطع وعدا على نفسه ولن يحنث. أمسك العصا. رشقها بنظرة حانقة كأنها السهم النارى!. تأمل الأفق. الأيام تتعاقب، والعمر كزهرة الصبار، تتفتح وما أسرع أن تذوى!. طوّح العصا بعيدا. أرسل طرْفه إلى صفحة السماء، لعله يستمد منها القوة، أو يسألها المدد. ثبّت قدميه. نعم قدميه!. خطا خطوة أو. بعض

خطوة. المهم أنه نجح. نجح!. تهلل محيّاه، وترقرقت عيناه بدموع الفرحة. عليه أن يخطو الثانية، وما أهون الثالثة بعدئذ. قدّم رِجْلا. حاول أن ينقل المُصابة فلم يستطع!. انتفض، وزاغ بصره، وكاد قلبه أن ينفلت من صدره. كتم صرخة فاندفقت زفرة حارّة من جوفه و.. غشيه الذهول. حاول ثانية دون جدوى. إذ أنه تمايل ثم تهاوى على الأرض. نشب فيها أظافره. ضربها بكلتا يديه. ثم ضربها. سفحت عيناه الدموع. نشج وانتحب. وأنّت الزهرة الشجية وبكت بغير دموع!. شرد أو أخذته غفوة. رأى كأنه يعدو إلى شجرة. وسرعان ما تسلقها إلى أعلى أغصانها. داخلته النشوة و.. صفّق ففقد توازنه فأفلتت إحدى قدميه. أفاق قبل أن يهوى على أمّ رأسه. تلفّت من حوله. إنه منكفئ على أرض الواقع!. لم يجر إلى الشجرة، ولم يتسلقها و.. رنّ في أذنيه صوت "أميمة": تسأله أن يُقرّ الواقع ولكنه أبَى. تذكّر وعده لنفسه. مسح دموعه. حاول أن يُعيد الكرّة ولكن.. ألقى نظرة إلى العصا. أخالها تغيظ له. تنهّد أءِ أصدر أنينا.... زحف إليها متأملا إياها:

– "ماذا أيتها العصا. لقد حِرتُ في شأنك، وغُمّ عليّ أمرك ؛ فلا أدرى حقيقة شعوري إن كنت أحبك، أو غير ذلك؛ فلساني يعفّ أن ينطق ما هو غير الحب. أنت سندى وعمادى، والدليل كما ترين: انكفاءتى بدونك. وها أنذا أسعى زاحفا إليك. لكم قسوتُ عليك حين طوّحتُ بك، ويشفعُ لى أنه برغمى؛ فالقسوة ليست من طبعى، وكانت فى لحظة غياب العقل وغلبة الانفعال. آه!. لقد تبدلتُ وأضحيتُ شخصا آخر غريبا عنى. فأنا لستُ أنا منذ إصابتى. معذرة عصاى فكل ما هنالك أنك دليل عجزى وعنوان محنتى، ومع براءتك من ذنبى؛ فأنت رمز عذابى. إننى مظلوم وأنت مثلى، والظالم لستُ أنا ولا أنت. إنه قدر كُتب علينا، وأزمة تشتد لتنفرج. محنة قصيرة

لأ ـد، أو امتحان قاسى للإرادة. الأيام تمضى حقا، ولن يطول أمد المحنة، يسرعان ما ينقضى وقت الامتحان. هلمّي إليّ عصاى، ولتصفحى عنى، يتكفكفي دمعي. ولا تحسبينها لحظة ضعف؛ بل لحظة عرفان".

يمدّ "زياد" يده إلى العصا، ويقف معتمدا عليها، ويودّع صديقته الزهرة على وعد باللقاء القريب. وعلى عكس مجيئه فقد رجع متردد الخُطى؛ مقهور النفس؛ كاسف البال. لقد حسب السرابُ ماءا. كذبت ظنونه وخدعته أحلامه، ولا بد من مراجعة الحساب، وإعادة النظر للأمور، واستطرد حديثه لنفسه:

- "حقا فما ذنب العصا. إنها عجماء كالحمار: فعلى ظهره يحمل الأسفار الأثقال كأنه مركبة!. والأجر إهانة وضرب كل حين حتى النفوق!. مرير عيشُه عند حملتُه أرجُله. يصرخ ويحسبونه نهيقا، يئن ولا يكاد يُبين؛ كما عبّر "المنفلوطى". ويشكو فعل البشر إلى رب الكون علام السرائر والغيوب. مسكين عزيزي الحمول الصبور. مسكينة عصاى الوفية المخلصة. العيب ليس عيب الحمار، وليس عيب العصا وإنما..".

(٣٠)

وفي اليوم نفسه؛ تعمدّ سؤال الممرضة عن حالته، وردّت كالعادة بأنه على ما يرام. لم يبال بشهقتها حين برقت عيناه قائلا:

– أسطوانة مشروخة!. وإذا كانت حالتى كما قلت؛ فلماذا أنا هنا؟. أريد الحقيقة.. الحقيقة.

– يُمكنك أن تسأل الطبيبة، وهيا لتأخذ الحقنة و..

– لن آخذ الحقنة، ولن أتناول القرص.

– ماذا؟!.

لم تتمهّل "الدكتورة رُفيْدة"، وأسرعت إلى "زياد"، وجعلت تحاوره حوارا ليّنا؛ عن أهمية العلاج فى مقاومة "الفيروس"، وإخماد نشاطه، وكذا جدواه في استقرار الحالة و.. ليباغتها:

– وماذا بعد العلاج. علاج آخر. أ ليس كذلك؟. أى سأقضي بقيةعمرى فى العلاج. أما من علاج فورىّ؟!.

رفقت به رفيدة، وأوضحت فى هدوء:

– العلماء لا يدّخرون جهدا، ويصِلون الليل بالنهار فى مختبراتهم، لكي يتوصلوا إلى..

– وفشلوا. أى أنهم عاجزون مثلى.

– ماذا؟!. أنت لستَ عاجزا يا "زياد" و..

ولم تستكمل "رفيدة" كلامها؛ إذ ينصرف "زياد" غير مبالٍ بنظرة الذهول التي لاحت فى عينيها، وما تلبث "رفيدة" أن تلتقى بالأخصائية الاجتماعية، وتَعرض عليها الموقف، موضحة ما قد يُعرّض حالته للتدهور؛ إذا أصرّ على رفض العلاج.

تطرق "أميمة" قليلا؛ حين يقع بصرها على عنوان بالصحيفة أمامها. وما تلبث أن يتهلل وجهها، وسرعان ما تقصد "زياد" وبيدها الصحيفة. وما أن تتقى به لتطلعه على العنوان. ليقرأ "زياد": غدا مباراة القمة!.

ثم يهتف فى فرحة: يا له من خبر!.

– ما رأيك فى رحلة إلى.. "الإستاد"؟.

– مرة واحدة!. إننى لا أصدّق. كأنى أحلم.

– ولكن.

– ولكن ماذا؟!.

- هناك شرط، ووعد.

- موافق بالطبع؛ فما الشرط؟.

- أن تعتذر للممرضة، وتمتثل للعلاج.

- والوعد؟.

- ألا تكرر مثل هذا على الإطلاق.

ولا يعلّق "زياد"، ويهبّ واقفا، ويعرج قفزا إلى حيث الممرضة؛ بينما انشرح صدر "أميمة"، وازّين ثغرها بابتسامة رائعة!.

(٣١)

تحسّبا للمفاجآت غير المحمودة، ومن باب درء الخطر قبل وقوعه؛ فقد رتأت "أميمة" ضرورة مشورة الطبيب النفسى، والاسترشاد برأيه وتعليماته؛ خاصة حالة "زياد" الذى يختلف عن بقية أقرانه، وما تلبث أن ترسل الملف الخاص به، والذى يتضمن كافة التقارير، وخط سيره وسلوكه منذ وفد إلى الدار.

وما أن يقع بصر "الدكتور يوسف" على ملحوظة "أميمة" على الغلاف؛ ليدع ما بيده، وينخرط فى قراءة محتويات الملف، وسرعان ما يُعدّ أوراقه، ويعكف على دراسة متأنية للحالة مستعينا بالمراجع والدراسات الخاصة. وقد دوّن كثيرا من الاستنتاجات والملحوظات. ثم حرّر تقريرا وافيا عن حالة "زياد"؛ مبينا فيها رأيه وتوصياته.

عايشت "أميمة" التقرير، والذى استهله بتحليل واف عن شخصية "زياد" مفاده: أنه شخص طموح للغاية، وقد تسببت الإصابة فى إعاقته عن الاستمرار؛ بما أدّى إلى احتدام الصراع بين عجزه وحلمه، وبالتالى تمرّد على الواقع الذى يُقصيه عن طريق أمنيته. والثورة واحدة من سماته الشخصية،

وتتفجر برغمه؛ حين يعدم الحيلة إزاء عجزه الذى يُشعره بالضعف والدونية على طول الخط. ونزوعه إلى الوحدة ليس إلا لمعايشة مشكلته، والبحث عن طريقة للخلاص من عجزه، الذى يعرقل مسيرته؛ بما يعنى أنّ عزلته عَرَضيّة وليست مرضية؛ ولا تُعدّ انسلاخا أو انسحابا من المجتمع: فلا هدف لانعزاليّ. ولا يتفق السعى، لتحقيق أمنية فى مجتمع، يُبغضه المرء ويعتزله. وهذا لا ينفى قوة إرادته، وتصميمه على الخلاص.

واختياره للأسد يحوطه الغموض. فلو فرضنا أنه تأثر به، فكان من الأحرى أن يتعاطف مع الغزالة أو الزرافة على سبيل المثال؛ بما يؤكد من وجود سبب آخر؛ من الضرورى اكتشافه، ولذا نوصى بتتبعه ومراقبته عن بُعد، وتحرير تقرير تفصيلى، وعرضه يوما بيوم.

وسرعان ما ترسل "أميمة" فى طلب "سكينة"، وتسند إليها مهمة مراقبة "زياد"؛ لتعترض "سكينة": ماذا؟!. أعجن عجين الفلاحة؛ إلا "زياد"!.

بذلت "أميمة" جهدا مضنيا، وما زالت تلح على "سكينة"، التى وافقت على مضض، ومن أجل خاطرها. وتجهز "سكينة" للقيام بمهمتها ومع صعوبتها إلا أنها عدّتها مغامرة؛ فتؤكد ذاتها من ناحية، وتقطع حبل الملل من ناحية أخرى.

(٣٢)

وفى مُستهلّ مغامرتها: كانت الليلة مقمرة، والضوء الفضّىّ يفترش الدار، والهدوء يفرد جناحيه عليها. فالكل نيام إلا "زياد"، وقد أبصرته "سكينة" بـ "الفراندة" يستحمّ فى ضوء القمر. لكم صفت نفسه: وها هو يتأمل قرصه بنظرة حالمة. رأته أيضا يتمتم كأنما يجاذب القمر حُلو الكلام، ويبثه حديث الغرام. علتها الدهشة:

– "عجبا!. كأنما يناجى القمر!، ويبثه همومه وأحزانه!".

يواصل "زياد" همسه؛ حين يشق الهدوء صوت الكروان. يقلب "زياد" عينيه في صفحة السماء. وتعود "سكينة" لتسأل نفسها: "عمّ يبحث؟!".

وفي اليوم التالي، يتخذ البراعم سبيلهم إلى قاعة التسلية؛ حين يهرع "زياد" إلى الحديقة. وبالطبع تتعقبه "سكينة". يتوقف أمام الشجرة إياها. ينقل بصره بين جذعها ورأسها التي تتطاول نحو السماء. إنها أطول أشجار الحديقة. تطول وقفته. وما زال يرى نفسه بعين خياله؛ حين يُلقى بالعصا جانبا، ويخطو نحوها. يتوقف أسفلها. يبدو قزما بجانب الشجرة العملاقة. يقفز ليُمسك بأقرب الأغصان. يُخفق ويُعيد المحاولة حتى يُمسك بالغصن. عندئذ يتسلق لشجرة غصنا بعد آخر حتى يبلغ القمة. ما أرفع القمة وما أمتعها!. يدور بعينيه فيما حوله فتلفحه نسمة. ما أنعش النسيم، وما أرحب الفضاء!، وما أجمل الدنيا!. غمرته الفرحة. ضحك. أيقظته الضحكة من أحلام اليقظة!. ابتسامة عالقة بشفتيه ما زالت. تمنى ألا يفيق من الحلم على الواقع المفزع الذي يزلزله، ويقضي على كل جميل حتى الابتسامة!. وبالفعل ودّعت الابتسامة شفتيه، وحلّ العبوس، ويعود لصرامته وتبرّمه و. "سكينة" تعاني من حيرتها، ولسان حالها لا يسكت عن التساؤل، وبدت في محياها ملامح التأثر!.

ويمضي "زياد" في تجواله. بلغ حديقة الزهور. واصل سيره أو زحفه حتى زهرة البنفسج. توقف أمامها كأنما يصلّي. "سكينة" ترقبه وفي عينيها إشفاق. تعجبت من تبدّل مشاعرها نحو "زياد"؛ الذي وقف ساهما يتذكر تعليق والده:

– الظروف أقوى منّي، ومنك.

وينطق "زياد" بالرد ذاته، وتكاد "سكينة" تسمعه:

– الظروف أقوى منك أنت، ولكن ليست أقوى منّي!.

وأضاف فى لهجة تحدى: لن أستسلم!. لن أستسلم!.

وتراه "سكينة" يفترش الحشائش بجانب الزهرة الشاردة. يفتح كراسة معه. يتأمل الزهرة لحظة. يُخرج قلما من جيبه ويكتب. يتأمل الزهرة ثم يعود ليكتب.

– "ماذا؟!. كأن الزهرة تمليه ما يكتب!. ما أرقّ لغة الزهور!".

كم تاقت "سكينة" لأن تقرأ ما يكتبه "زياد"!. جعلت تفكر. تبتسم لفكرة أطلّت فى ذهنها. تخطو نحوه. تتوقف بالقرب منه وتهتف:

– الله!. أ أنت؟!.

يفاجأ "زياد" بصوتها؛ الذى يشتت فكره ويضيّع كل شرء!.

– "ميس سكينة"!.

– رأيتك صدفة. هل تكتب؟.

– كما ترين!.

– خطابا أم شعرا؟.

– لا هذا ولا ذاك.

ولا يعطيها الفرصة للكلام، إذ يعتمد على عصاه، ويدع المكان؛ بينما تقلّب "سكينة" كفّيها فى حيرة واستغراب.

(٣٣)

انطلقت "أميمة" إلى مدرسة "زياد" حين رأت ضرورة ذلك، والتقت بمدرس التربية الرياضيةوسألته عن "زياد". أطرق المدرس برهة، ثم خرج صوته مبحوحا تخنقه الدموع:

– لقد افتقدنا لاعبا مثاليا. خلقا ولعبا، ولولا إصابته لكان له شأن كبير في لعبة كرة القدم، ولكنها إرادة الله!.

شتد قلق "أميمة" على "زياد"، لتعجّل بمقابلة "الدكتور يوسف"، وتنقل له مخاوفها، ومشاعر القلق التى أحاطت بها، خاصة بعد لقائها مع مدرس "زياد". تعجب الدكتور متسائلا عن السبب، لتبرى أميمة موضحة:

– "زياد" كان لاعبا فذّا كما أفاد مدرّسه، وتنحصر أمنيته فى العودة إلى الملاعب، والأهمّ أنّ إصراره يزداد كل يوم عن سابقه، وإنه على ثقة بأنه سيُلفت نظر الدنيا ويصفق له العالم ويهتف باسمه.

وعندئذ يصيح الدكتور يوسف مفاجئا "أميمة":

– هذه هى!.

– ماذا تقصد يا دكتور؟!.

– "زياد" يتطلع أن يكون بطلا كالأسد، الذى لا بد وأن يتذكر طبيعته يوما؛ فيحطم القضبان ويُخلّص نفسه من الأسر، ويسترد ماضيه المشرق المشرّف.

– فهذا ما وراء اختياره للأسد.

– بالضبط: إنه يرى نفسه فى الأسد. أو كأنه الأسد. أستأذنك لمقابلة الأسد.

– ماذا؟!.

(٣٤)

كان لقاؤهما رائعا؛ إذ اندفع الدكتور إلى "زياد"، وضمه إلى صدره، وعانقه عناقا أبويّا. وسارا معا بمماشى الحديقة يتحاوران كأخويْن، أو صديقيْن. كم أنس زياد للدكتور، وكم أحبه؛ فلم يخجل من البوْح بأدقّ أحاسيسه، وما يساوره من وساوس وهواجس، ولم يجد حرجا فى التعبير عن رأيه، وكل ما يجيش بصدره ويجول بفكره وخاطره!.

– "يا لهذا الصغير، الذى يحمل قلبا كبيرا، ونفسا نبيلة!. لكأنه عائد من زمن العماليق!".

هذا ما جرى على لسان حال "الدكتور"، ولو أنه صادفه بعيدا عن الدار؛ لجاهر بما أسرّه في نفسه، ولزاد عليه!.

لقد شغف الدكتور بشخصية "زياد"، وانبهر بجسارته، واعتداده بنفسه، وعلوّ همته؛ إلى جانب رجاحة عقله، وفصاحة لسانه، ولباقته وثقافته، وفي المقدمة: بريق عينيه الذى عَجِب له، وشدّه من أول وهلة. ويراه الدكتور يوسف نموذجا ومثالا خالصا لشخصية البطل!.

ومع ذلك فقد ساوره القلق بشأنه؛ ذلك لأن البطل متيقن من شفائه العاجل، وعودته إلى الميدان. ومن المستحيل زعزعته، أو زحزحته فِترا عن معتقده، وما رسخ فى ذهنه ومشاعره!.

– "آه لهذا الصغير!. لو بعدت الشقة بين إصابته وأمله!. ولكن لله في خلقه شئون".

وبدوره ينقل الدكتور مخاوفه وأسباب قلقه لـ "أميمة"؛ التى أنصتت إليه:

– إن "زياد" متمرد على واقعه؛ بل ويرفضه رفضا باتّا، وإنه يعيش في نفسه مع أحلامه وخيالاته بعيدا عن الواقع؛ مما يشكل خطرا عليه؛ الأمر الذي يوجبُ إبعاده عن شبح اليأس، والتعامل معه بلباقة ودون استخفاف. مع وضع برنامج جاد لشغله طوال الوقت، وتوجيه طاقاته وإمكاناته لصالحه، وإلا..

– وإلا ماذا يا دكتور يوسف؟!.

– سيكون عرضة للاكتئاب، أو الانهيار لا قدّر الله..

– اكتئاب أو.. انهيار؟!.

مهما شهقت "أميمة"، وزاغ بصرُها، وأصابتها الرعدة؛ فإن ذلك لن يعفيها من المواجهة؛ ليست كمسئولة لقاء أجر، أو لوعد قطعته، أو عهد التزمت به، وإنما بوازع من نفسها وضميرها، وما قُدّر عليها؛ كصاحبة رسالة إنسانية؛

سبلت على الرحمة، وطُبعت على الحب والخير. وإنه همّ بدرجة: "مهول"، حقّ على كاهل "أميمة"؛ فضلا عن همومها الأخرى.

والحق إنها لا تملّ ولا تكلّ، ولا تنوء بأثقالها!، وليس هذا بغريب على شطّ الأمان، ومرفأ الحنان، ونبع الحب والدفء لكل زهور الدار؛ خاصة "زياد": مبعوث القدر إليها، التى شُدّت إليه بكل مشاعرها؛ ليحتجز مكانا عليّا في قلبها، ورأت فيه ولدها الذى لم تُنجبْه؛ لتؤكد المقولة الخالدة: "رُب أخ لك لم تلده أمك".

(٣٥)

لم يأت الدكتور بجديد على "أميمة"، فهى التى أملتْه ما أعاده عليها، وتعلم أن الصغير غارق فى أحلامه وخيالاته. ولكن ما أفزعها مصيره: الاكتئاب الذى ينتظره، أو الانهيار لو أخذنا فى الاعتبار رهافة الحسّ الزائدة لدى "زياد".

قد تولد الفكرة من رحم الحلم والخيال كما أيقن "زياد"، ولكن فى حالته: يتوقف الأمر عند الحلم والخيال، ولن تولد الفكرة لأنها متلاشية، أو مخبوءة في عجزه إلا.. إلا إذا كُتب له الشفاء بنسبة مائة بالمائة ولا تقلّ عن ذلك؛ لأن الأمل مرهون بقدمه، وهذا مُستبعدٌ بالمنظور العلمى والبشرى، ولا يتحقق إلا بمعجزة.. أو منحة من الله. الواقع مرير، وثماره علقم، والحقيقة مروّعة، والمصير مجهول و.. ولا بديل عن المواجهة. إن "أميمة" لا تفقد الثقة فى نفسها كإنسانة، وكأم لابنها الروحىّ، أو فى الإنسانية.

المستقبل ليس معتما، ولكنه غامض. الغيب فى حدّ ذاته مجهول دوْما. وفى جهالته اللطف والرحمة و.. أرسلت عيناها وميضا. يبدو أن فكرة لاحت لها.. وسرعان ما اتصلت بوالدة "زياد"، ودعتها وأخته "زهراء" لأمر عاجل وبالغ

الأهمية. وطارت الأم وابنتها إلى الدار. التقت بهما "أميمة". ودار بينهما حوارٌ عن هوايات "زياد" ومواهبه:

الموسيقى على سبيل المثال، وأجابت "سعاد" هانم:

– "زهراء" ما شاء الله ماهرة فى..

– و"زياد"؟!.

– "زياد"!. نادرا ما كان يلعب على "البيانو". لا أظن أنه يهوى الموسيقى.

– والرسم؟.

– أعتقد أيضا أنه لا يهوى الرسم.

وآنئذ تعترض "زهراء" قائلة:

– لا يا "ماما". "زياد" رسمه جميل، وكان يساعدنى فى..

وتقاطعها الأم؛ موجّهة كلامها لـ "أميمة":

– المهم. "ميس أميمة": إننى مستعده لدفع أى مبلغ مهما...

– "سعاد" هانم. ليست المسألة هكذا بالمرة. وعموما المال لا يحلّ كل المشاكل؛ خصوصا.. مشكلة "زياد".

– ماذا؟!.

كما تلتقى "أميمة" بوالد "زياد"؛ الذى ترقرقت عيناه بالدموع؛ موضحا أن ابنه كان عاشقا لكرة القدم دون سواها، وكان يعقد كل آماله لأن يغدو لاعبا تملأ شهرته الآفاق؛ إلا أن القدر حال دون ذلك، وليس للمرء إلا أن يرضى بقضاء الله، ويصبر على بلواه، ويحمده فى علاه؛ فرُبّ ضارة نافعة، ولو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع.. ولقد ذكرنا آنفا أنّ فى جهالة الغيب اللطف والرحمة.

لم يعف الرجل نفسه وأمه من المسئولية تجاه "زياد"؛ معترفا بتقصيرهما فى حقه، وتفريطهما في واجبهما نحوه، وذلك بانصرافهما عنه لهثا وراء تحقيق لنجاح الشخصى وجمع المال. وفي المقابل كانت الضحية قرّة العين و.. وماذا يفيد الندم بعد أن... ولم يستكمل الأب الكليم إذ تحشرج صوته، وانخرط فى البكاء!.

(٣٦)

البراعم الغضة بقاعة التسلية يُمضون وقتهم فى لعبات توسّع إدراكهم وتنشّط عقولهم وأذهانهم، أو يتحاكون ويتمازحون، ويبدو فى غمرة هذا أنهم نسوْا مُصابهم، ورضوْا بما قُدّر لهم، أو أنهم اعتادوا عليه بتوالى الأيام: مجتمع قوامه البراءة والطُّهر والنقاء: لا مكان فيه للجشع والحقد والحسد ، ولا أحد يُضمر السوء لزميل أو زميلة؛ إلا من بعض المناوشات الخفيفة؛ سرعان ما تزول آثارها، ويعود الصفاء للنفوس. ولا غرابة أن ترى هذا بين زهور البشر!.

قد تُشفق على الصغار، أو تَرأف بحالهم، لو طاف بخيالك ما يفعله أقرانهم الأصحاء: أؤلئك الذين تنطلق سيقانهم كالظباء، ويملأون الأرض لعبا ومرحا. وقد تدمع عيناك، أو يغصّ حلقك. ولكنها إرادة الحكيم العليم!.

صاحبنا داخل القاعة أيضـ. ليس معهم، ولكنه يواصل جولاته فى نفسه، وما زال به يحلّق في سماء الماضى الذى كان.. يتأمل صورا ما أجملها فى عينيه، وما أحبها إلى قلبه، وهذه الصورة التى تبزغ له كل حين: إنه يراوغ الدفاع ويسدد الكرة فترتطم بالعارضة، ويضيع هدفا أكيدا و.. يندب حظه. وها هو يتلقى الكرة، ويحوّلها برأسه لتمرق شمال الحارس وتسكن الشِّبَاك. يتهلل محياه، ويعانق الزملاء متناسيا الهدف الذى ضاع.

إنه لا يتحسّر على حاضره ويعدّه مؤقتا وعَرَضيّا، وسيُسقط من حياته وذكرياته. المستقبل يدعوه كل لحظة، والأمل مُتألق في أزهى ثوبه. وغدا يعود نجمه للسطوع: هذا ما رددته "سلمى"، وتطمئن إليه نفسُه: المسألة يعوزها الصبر كما أكدت، ولن تطول أيام الصبر.

تبدّت له زهرة البنفسج الوادعة. لعلها تناديه أو.. سحب عصاه مُمّما نحو باب القاعة. تستوقفه "سكينة" المكلفة بمراقبته؛ فلا يتوقف. تسأله وجهته فلا يرد، وتسترجعه فلا يرجع. توقف حين سألته:

– أتعصى الأوامر؟!.

– لا. ولكني لن أرجع؛ لأني لا أريد، والمفروض أن نتحرك في حرية. وبلا قيود. لسنا في سجن.

– سجن!.

ويسعى "زياد" إلى حيث شدّه حنينه؛ لتسقط "سكينة" في يدها؛ بينما يعلوها الحرج.. والصغار يترقبون ويتهامسون، وشيّعوا"زياد" بنظرة إعجاب، حين استشاطت "سكينة" غضبا. وانطلقت إلى حيث مكتب مدير الدار.

وفي الحديقة كان "زياد" يناجي زهرته، ويبثها أشواقه حين صاح الكروان بأغرودته الملائكية. يا لهذا الصوت الذي يتيمن به، ويجدد في نفسه التفاؤل والأمل!. تمتد يده ليفتح كراسته، وينبرى قلمه في التعبير عن مشاعره:

– "أتسمعين زهرتي الحزينة؟. ما أعذب صوته!. إنه يُطربك يقينا كما يطربني ويهز مشاعري.. أخال أنه يقول كلاما، أو يبلغني رسالة بالغة الأهمية. تُرى أيس هو؟، وماذا يقول زهرتي الشجية؟!. ليتني أعرف لغة الطير!".

(٣٧)

وجاءه من يدعوه لمقابلة المدير. تُرى ما سبب الدعوة؟!. إنه لا يعرفه وما سبق أن التقى به. عموما لا ضير من مقابلة المدير أو غيره. ويذهب "زياد"، ويطرق الباب، ويدخل رافعا رأسه فى شموخ؛

بـا يلفت نظر المدير ليهتف فى دهشة: "زياد"!.

ينهض "مستور" دون تفكير. يلغّ حول مكتبه ليستقبله، ويشد على يده، ويدعوه للجلوس، ثم يجلس قُبالته، وقد شدّه وميض عينيه ليحدث نفسه:

- "ما شاء الله!، وكأني أرى فارسا وثب توّا من على صهوة جواده، وما عرجه لا إثر إصابة فى معركة النصر، وقد لبّى دعوة قائده ليُقلّده وسام البطولة والشرف".

لقد نسي ما دعا "زياد" من أجله، أو تناسى؛ فكيفّ يوجّه اللوم لبطل؛ ولتذهب "سكينة" باستقالتها و.. ولكنها امرأة طيبة القلب، ومشهودٌ لها بالكفاءة، وهي من ذلك الصنف سريع الغضب سريع الصفاء، وما أيسر أن تعدل عن موقفها وتسحب الاستقالة مقابل كلاما رقيقا. و"زياد" كما يبدو: شهم وذو مروءة، ولا شك أنه لم يتعمّد جرح كرامتها، ولن يمانع فى الاعتذار لها على مرأى الصغار.

المثير أنه لم يتخيل أن يكون أحد الصغار على هذا النمط الفريد، ولم يتوقع أن تأسره شخصيته على هذا النحو.

طال الصمت. سئم "زياد" ليبادر بسؤاله عن سبب الدعوة. سؤال لم يخطر بباله أيضا. ولكنه لم يعدم اللباقة، فقال كلاما نمطيا مفاده الاطمئنان عليه أو شيء من هذا القبيل و.. يطرق الباب.. يالحظ المدير فقد واتته الفرصة ليتحرر من نظرته النفاذة، ومن عينيه ذات البريق العجيب.. يدعو الطارق

للدخول، وما أن يُفتح الباب لينطلق صياح العصافير.. ما الأمر؟!. يلتفت "زياد" نحو مصدر الصوت، ليقع بصره على مفاجأة من العيار الثقيل. الرجل يحمل قفص عصافير الكنارى. ما الذى يجرى؟! ولماذا أتى بها الرجل؟!.

ويشرد "زياد" متذكرا حلمه، وقفص العصافير. وتتوالى الصور على شاشة مخيلته حين وقف أمام قفص عصافير الكنارى بحديقة الحيوان. العصافير تصرخ كأنما تستنجد به!. يحاول أن يخطو ويداه ممدودتان نحو القفص و.. ولكنه شعر بقوة تشده إلى الخلف، وتحُول دون نجدته للعصافير. حاول ولكن ذلك الشىء كان أقوى منه. يشير "مستور" إلى رَفّ بالحائط المقابل. يضع الرجل القفص فوق الرف وينصرف. يقف "زياد" بين دهشة 'مستور"، وما زال به يتأمل العصافير وعيناه ترسل البريق العجيب: الصغار المعاقون فى حديقة الدار يعرجون وينكفئون ويتألمون. إنهم أسرى عجزهم،

وليسوا أحسن حظا من العصافير، ويخرج صوت "زياد" كالفحيح:

– "عصافير الكناري السجينة!. نعم هى!. إنها تستنجد بى!. ألا تسمعون الصراخ؟!. إنه يشقّ السمع والقلب. أو أصابكم الصمم. أفلا تحسون؟!".

المدير غارقا فى استغرابه وقلقه وحيرته.. ينادى على "زياد" الذى لا يسمعه ولا ينتبه له:

– "ما الأمر؟!، وماذا أصابه؟!.

– "سأطلق العصافير وأنقذها من هوْل الأسر، ولتكفّ عن الصراخ.

سأمنحها الحرية. ما أغلى الحرية، وما أعذبها!".

يسحب "زياد" مقعدا حتى أسفل الرف، ويسأله "مستور" عمّا يفعل، ولا يحفل به "زياد"؛ فإنه مشغول بتحرير العصافير، وها هى تستحثه بصراخها الذي يملأ الآفاق، ويصم الآذان ، ويمزق نياط القلوب.

يوفّق فى اعتلاء المقعد بعد محاولات. عينا المدير فاغرة من فرط الدهشة الحيرة. يبتسم "زياد" بكل ملامحه. يمدّ يده ويفتح باب القفص؛ لتنطلق لعصافير، وتمرق عبر فضاء القاعة إلى النافذة المفتوحة، بينما ارتفع صوته يعلت ضحكاته:

– طيرى يا عصافير الكنارى!. طيرى يا عصافير الكنارى!. هاهاها هاهاها.. هاهاها!.

والمدير المأخوذ من شدة الذهول؛ ينقل بصره بين "زياد" والقفص الخاوى، وكأنما شُلّ لسانه فلم ينطق حرفا، وينزل "زياد" وضّاء الجبين، ويخطو نحو الخارج مرفوع الهامة؛ إذ حقق النصر فى معركة تحرير العصافير؛ ليدع المدير يسائل نفسه:

– "لماذا طيّر العصافير؟!".

(٣٨)

حدث غريبٌ ومثير؛ سرعان ما انتشر فى الدار ليدهش الجميع، وتُطرح تساؤلات:

– "لماذا طيّر "زياد" العصافير؟!. هل يغيظ للمدير؟. أم أنه لا يحب العصافير؟! ". بالطبع لا هذا ولا ذاك ؛ فتلك أولى لقاءاته مع المدير. ومن ذا الذى يُبغض العصافير؛ صنع الله التى أبدع ألوانها؟ فَعلة جريئة وحمقاء. وعجيبة فى الوقت ذاته!. أوَجُن جنونه؟!. وما الذى يفعله المدير حيال "زياد"؟!. هل يفصله، أو يعنّفه، أو يكتفى بلوْمه؟".

أحاطه الصغار وسألوه، كما سأله كل من "عصام وسماح"، وكان ردّه الصمت، والابتسام!.

عجيب أمر هذا الصغير. الجميعُ حائرون، وهو لا عليه، والأمر لا يعنيه؛ وكأنه لم يرتكب حماقة، ولم يأت بمخالفة!. بل كان في غمرة سعادته ونشوة انتصاره. ولا غرو فقد ارتاح بالا وسكن ضميره عن الأنين!.

كان على "أميمة" أن تسبر أغواره. وتميط ستر الغموض عن فَعلته. دعته، وما أحب لـ "زياد" أن يلبّي دعوة "أميمة" أقرب الناس إليه. ودار بينهما حوار، وبصدقه المعهود؛ انبرى معبّرا عن مدى تأثره بالعصافير المعذبة، وأنه لا يطيق أن يرى مخلوقا مقيد الحرية؛ مُصرّا على أن العصافير سعت إليه، واستصرخته ليخلّصها من عذاب الأسر، وكيف له أن يغضّ سمعه وبصره عن مأساة العصافير؟؛ إلا أن يكون متحجّر القلب متبلد المشاعر. ويتساءل عن حال أناس تعطل بهم المصعد لدقائق معدودة.

و"أميمة" تُصغي إليه بكل حواسّها ومشاعرها، ولكم شدّها قوة حُجّته، ومروءته، ورأت فيه الفارس الذى اقتحم المهالك لإنقاذ رفاقه. عصفير، أو غيرها.

وتعمد "أميمة" لإثارته لأمر في نفسها فقالت:

– ولكنها عصافير زينة.

وينتفض "زياد":

– لم يخلق الله عصافيرا للزينة أو التسلية، اسمها عصافير الكنارى كما أخبرت الكتب، وهل أُطلق عليها هذا الاسم لحبسها والتسلى برؤيتها. أىّ تسلية برؤية طير يتعذب؟!.

– كيف وهى تزقزق؟.

– بل تصرخ من هول السجن. مع أنها تكون أكثر جمالا وهى تمارس حريتها في أحضان الطبيعة: تلتقط الحَب من هنا وهناك، وترتوى من ماء الجداول

الغدران، وتتقافز فوق أغصان الأشجار، وتترنّم بأهازيجها ليطرب الإنسان، الحيوان، والنبات.. .

– الحيوان.. والنبات!.

– والحشرات أيضا.

– "يا لهذا الصغير ذو القلب الكبير، والمشاعر الفيّاضة، والحسّ المُرهف، والمنطق الحكيم!. لعله أتى من كوكب آخر، أو إنه ملاك فى صورة إنسان!. إنّ بريق عينيه. إنه ليس مجرد بريق، ولا بد أن وراءه أمرٌ ذو بال!".

(٣٩)

أنكر الكثير فَعلة "زياد" وعدّوها خطأ جسيما، ومخالفة صارخة لقواعد السلوك؛ تستوجب الحزم حتى لا يعود "زياد" ولا غيره لمثلها. ويتدخل الدكتور يوسف "؛ مبيّنا أنه رأى انفعاليّ، وغير صائب، ويؤدى إلى نتائج عكسية، وعواقب وخيمة. وإنه يتنافى مع الدور الأساسى الذى تقوم به الدار؛ كمؤسسة لرعاية البراعم المعاقين، وعلاجهم نفسيا وعضويا. مع ضرورة ألا نغفل أن الصغار يتعاملون مع الأمور بتلقائية وفقا لمشاعرهم، وليس بفكرهم ودرايتهم، وذلك لافتقادهم التجارب الذاتية والخبرات، وإنهم لا يُدركون أثر أفعالهم في حينه، وقد لا يدركون بالمرة لاقتناعهم وارتياحهم لما قدّمت أيديهم.

هذا بشأن الصغير المُعاف؛ فما بالك بالمُعاق. وخاصة إذا كانت حالة مختلفة، ونموذجا مُغايرا مفرط الحساسية مثل "زياد"؟!. الأمر الذى يوجب معالجة الأمر برويّة، وبأسلوب علميّ. تسبقها دراسة متأنية وفحص دقيق للأسباب والدوافع، ولكلّ أسبابه ودوافعه الخاصة.

ويرى الدكتور يوسف أن "زياد" هادئ بطبعه، وليس مندفعا أو متهوّرا، وإن كان متمردا على إعاقته؛ التى حالت دون مواصلته المسيرة نحو هدفه، فإنه فى المقابل: جاد، وملتزم، ولا يحيد عن مبادئه، وله فلسفته الخاصة فى كل شئونه وأفعاله و.. أكبر الظن أنه على حق!.

طرق الباب، وكانت دهشة الدكتور يوسف حين أبصر "زياد" بطلعته البهية وابتسامته الودودة. استقبله الدكتور استقبالا حارًا، ودعاه للجلوس. ودار بينهما حديثٌ شيّق، وتطرّق الدكتور إلى موضوع العصافير؛ سائلا "زياد" أن يعتذر عن خطئه فى حق السيد المدير حين طيّر عصافيره، ليهتف "زياد" معترضا:

– عصافيره!. إننى لم أخطئ. ومن واجبى إنقاذ ضعيف استجارنى.

– استجارك؟!.

– أجل. كما أن العصافير ليست ملكا لأحد. إنها عصافير الفضاء. عصافير الحياة.. مخلوقات الله. لقد خلق الله أجنحة للعصافير والطيور، لكى تحلّق بها في الفضاء. ولذا سُمّيت الطيور، وليس لأحد أن يسلب حق الآخر أو يعتدى على حريته. لقد شكت إلىّ العصافير و..

– شكت إليك؟!.

– بل استصرختنى وملأ صراخها الآفاق. وأحمد الله أن أنقذتها وطيّرتها وهى الآن تتغنى بالحرية أغلى ما فى الوجود. أهكذا أخطأت؟.

وقال الدكتور يوسف متحمّسا ومؤيدا:

– كلا، وأقسم لك!.

وكتب الدكتور تقريره الذى أوضح فيه: أن "زياد" يعانى من إعاقته أشد لمعاناة، وإن ما أقدم عليه بشأن تخليص العصافير أو طيرانها؛ ما هو إلا إسقاط لرغبته الشديدة فى تخليص نفسه من قيد الإعاقة، وهو مرة يكون الأسد خلف القضبان، أو عصفور في قفص. ويرى نفسه فى كل من قُيّدت حريته، أوعجز عن ممارسة حياته كما يمارسها الآخرون.

(٤٠)

عرف "زياد" قيمة القراءة؛ فانهال على الكتب ينهل من نهرها العذب الرافده العديدة فى مجالات: الدين، والأخلاق، والاجتماع، والأدب، والتاريخ. ويسطر بقلمه ما يبرق فى ذهنه، وما يلحّ عليه من خواطر وأفكار. كما يعبّر عما يُعتمل بداخله من أحاسيس ومشاعر.

عرّفته الكتب الحياة، والمخلوقات، وقيمة الإنسان ذلك الذى خلقه الله من نفس واحدة؛ ليستخلفه على الأرض؛ فيُعمّرها، وينشر فيها الخير والسلام، وأن هذا لن يتأتّى إلا بالتعاون، والتضافر، والعمل. وعلى رأسها الحب، ثم الحب، ولا شيء غيره.

وعليه فإن لكل إنسان دوره فى الحياة، ورسالة يسعى لنشرها، ومهمة يجدّ لتحقيقها؛ فيُفيد نفسه، ومجتمعه، والوطن الذى تربّى على أرضه، وتحت سمائه، وينعّم بخيره.

كما أدرك قيمة الوقت، وأن في ضياعه مضيعة للمرء فى كل شيء؛ لذا شغل نفسه طوال الوقت، ووزع ساعات يومه بين: أداء الصلوات فى أوقاتها، والالتزام بجلسات العلاج الطبيعى، والقراءة؛ خاصة تلاوة القرآن الكريم. ومع ذلك لا يفوته مشاهدة مباريات كرة القدم على شاشة "التلفاز". وكان يركز نظراته على أرجل وأقدام اللاعبين وهى تعدو، وتتناقل الكرة، وحين تسجّل

فى المرمى. وكان يتتبع الهدّاف: ذلك اللاعب المتميز الذى يحسم المباراة لصالح فريقه؛ لينال التكريم من الزملاء، والتحية من الجماهير، وكان "زياد" يُطلق لخياله العنان؛ فيرى نفسه ضمن لاعبى الفريق المغلوب. ويستطيع بمهارته فى التهديف أن يغيّر نتيجة المباراة وينتزع هتاف الجماهير.

وعيناه ما زالت تومض بالبريق العجيب، والإصرار يتنامى بداخله، ويرتسم ف ملامحه، ويعود ليتأمل رجله إياها، ويحدث نفسه. أو يسطر بقلمه:

– "كيف أعيش أسيرا لإعاقتى؟!. إننى برىء من أسبابها و. إنها من صنع القدر. قد تكون لحكمة لا يعلمها إلا الله، وقد تكون بلاءا أو امتحانا لعزيمتى وصمودى. ولكن إلى متى؟. متى تنتهى أيام الصمود؟

أهو امتحان أبدىّ؟.

ويسترجع "زياد" آراء وتوصيات الأطباء، وتلميحات "أميمة" ورسائلها بين السطور. وهذا وذاك يقبله العقل، لكن داخله لا يقرّه؛ بل يرفضه رفضا قاطعا.

"سلمى". كان لها رأيا آخر، وإن كانت تكبُره بأعوام قليلة، ولكنه ارتاح لوجهة نظرها. فهى الوحيدة التى تسللت إلى نفسه، ووقفت على أدقّ مشاعره، ولقد أبدت إعجابها بفكره وطموحه. ولم تكتف بتأييده؛ بل شجعته وأشعلت نيران حماسته؛ ليزداد عزما وإصرارا، وأوقدت لهيب إرادته ليتشبث بالأمل، ويتحدى اليأس والعجز. والحقيقة أن "سلمى" لم تكن تسايره، ولم تشأ إرضاءه أو محاباته، وإنما كانت تعبّر عن رأيها وإحساسها بصدق شديد، وإيمان عميق. كما أن صوتا من أعماقه يدعوه، ومشاعره تستجيب إليه، وتنساق وراءه. لعله مصدر البريق الذى يُطل من عينيه كل حين. أو أن هذا الوميض هو شعاع الأمل.

(٤١)

يفرغ "زياد" من الكتابة فتخطو إليه "هبة"، وتسأله عما يكتب، ويردّ بين بتسامته: خواطر أو.. مذكرات.

– مذكرات!. تسلية لطيفة.

– تسلية!. إنها ليست لبّا ولا ترمسا.

تضحك "هبة"، ثم تطلب منه أن تقرأها. ويقول "زياد" فى لهجة اعتراض:

– إنها مذكرات وليست كتابا!.

– قد تكون كتابا.

– عندئذ يمكنك قراءته ضمن آلاف القراء.

– آلاف!.

– بل ملايين.

تتسع ابتسامة "هبة".

– ولم فكرت فى الكتابة؟.

– إننى لم أفكر. ولكن وجدتنى أمسك بالقلم وأكتب.

وتوجّه إليه نظرة إعجاب.

– استمر يا "زياد".

وكثيرا ما كان يجمع "زياد" أقرانه ويقصّ عليهم القصص؛ مع مناقشة أحداثها، وما يستنبطونه من عبر وعظات، وقد سأله عصام عن مصدر كل هذه المعلومات والحكايات، فأجاب: الكتب، ومكتبة الدار تذخر بها.

وفى اليوم التالى يرافقه "عصام" إلى المكتبة، وبمضىّ الأيام يُصبح معظم أقران "زياد" من رُوّاد المكتبة، وكم كانت سعادة "هبة" فبفضل "زياد" عمرت المكتبة وكثر القراء.

(٤٢)

وفى يوم شمّ النسيم، وهو إجازة بالدار كأيام المناسبات والأعيد؛ يقضيها الصغار مع أسرهم وذويهم، وكانت "سلمى" قد دعت "زياد" وأسرته، وتنطلق الأسرتان إلى عم "سلمى" بالريف ليقضوا يوما ما أجمله وأمتعه!؛ فقد اصطحبته "سلمى"؛ ليجولا معا بين الخضرة، والنخيل، والأشجار، والسواقى، وجداول المياه التى تنتشر فى الحقول كالشرايين التى تحمل الدم النقىّ، وتوصّله من القلب إلى كل أعضاء الجسم؛ فتبعث فيه الحياة. وكم سُرّ برؤية الفلاحين فى لحظات جدّهم: من يعزق، ومن يروي الزرع، ومن ينقّى الحشائش التى تضرّ به. وحكت "سلمى" عن عادات الفلاحين، وفرحتهم فى أيام أو أعياد الحصاد. كما حكت عن الطائر الوديع "أبو قردان" صديق الفلاح منذ زمن بعيد، وكم تعجب لما عرفه عن ذلك الطائر، إذ أن أشهى طعامه تلك الديدان الأرضية التى تخرّب الزرع، وتدمر المحصول. وعرف "أبو فصادة"، والحدأة، والحمامة التى ذكرته بتلك الفدائية؛ التى قيل إنها عششت بمدخل غار ثور، ولم تخش الكفار والمشركين!. والغراب الذى علّم "قابيل" كيف يوارى جثمان أخيه الذي قتله مع سبق الإصرار!، والهدهد رسول الملك "سليمان" إلى بلقيس ملكة سبأ، والذى كاد أن يذبحه لولا أن جاءه بالخبر اليقين.

وكم شده بُرج الحمام؛ فمكث يرقب الحمام الذى يطير فى حرية، ويخرج من فتحات فى البرج، ويرجع إليه فى أمان وسلام!.

وعرف الكثير من الأصوات: هديل الحمام، وثغاء الغنم، وخوار البقر، ونهيق الحمار، وصهيل الحصان، ونباح الكلب، وعواء الذئب، ومواء الهر: أى القط. ونقيق الضفادع، وقرقرة الدجاج، وحفيف الأشجار، وهدير الموج،

خرير المياه. لكلّ نغمة وكأنها فرقة موسيقية تعزف على العود والبيانو والكمان، وكل الآلات!. يا لسلمى هذه، كأنها دائرة معارف!.

تذكر الطائر الذي يحرّك مشاعره، ويرسل إليه رسالة غامضة. كاد أن يسألها عنه، ولكن أتى الصوت إلى سمعه، ودوّى في الفضاء؛ ليهتف زياد متعجبا:

– أهنا في الريف أيضا؟!.

وأخيرا عرفه: إنه الكروان. ما أجمل اسمه!، وما أعذب صياحه الذى يقال عنه دعاء الكروان.

– دعاء الكروان!. وما الدعاء؟.

– الملك لك لك يا صاحب الملك.

– الله!. يا له من دعاء!، وما أجمل أن يردده الكروان إلى الأبد ليبث التفاؤل في النفوس، ويُبرق الأمل في الصدور.

ما أجمل ذلك اليوم!. إنه لن ينمحى من ذاكرة "زياد"، الذى جلس بالقرب من زهرته الشاجنة. يسترجع أحداث البارحة، التى انسابت في مخيلته، ليُخرج قلمه. ليس ليكتب، ولكن ليرسم. وماذا يرسم إلا صورة "سلمى" التى قبعت في خياله. إنه يحفظ كل ملامحها: عينيها، وأنفها، وثغرها الذى لا يملُ الابتسام. تراه "سكينة" المنوط إليها رقابته. تعجبت. إنه لا يكتب؛ بل يرسم. كادت أن تذهب إليه و.. ولكنها خشيت سوء العاقبة. فتراجعت عما انتوت، وانطلقت إلى "أميمة" لتزفّ لها الخبر؛ تاركة "زيد" مع خياله يستكمل رسم "سلمى".

يا له من خبر سُرّت به "أميمة"!، بل كادت تطير من فرط الفرحة لتهتف:

– هذه هي!.

(٤٣)

لم تضيّع "أميمة" الوقت، وسرعان ما تُعلن عن مسابقة فى الرسم تحت عنوان: "من وحى الخيال"، ويشير الإعلان إلى تقديم جوائز للثلاثة الأوائل: مكافأة مالية، وميدالية تذكارية، وشهادة تقدير.

إلى جانب عرض الرسوم الفائزة على الشاشة الصغيرة بأحد برامج الأطفال، وتوزع الجوائز فى حفل يقيمه الدار، ويُدعَى إليه أولياء الأمور ويتزاحم الصغار حول لوحة الإعلان، وكل يراوده الأمل بنيْل الجائزة الأولى، وما يلبث أن يتسابقوا ليسجّل كل اسمه لدى "أميمة"؛ إلا "زياد"؛ الذى عرج إلى ناحية أخرى: إنه لن يشترك فى المسابقة فهو لا يُجيد الرسم، ولم يكن بارعا فيه كحاله فى كرة القدم و.. ولن يكون بين الفائزين. قد يأتي ترتيبه الرابع، وهذا يعدّه إخفاقا؛ فلن يحصل على ميدالية أو.. ولن يقف على خشبة المسرح، وسيقبع فى ظلام الصالة بعيدا عن الأضواء. إنه يأبى ذلك ولا يَطيقه. هكذا حدّث "زياد" نفسه.

أتى الصغار، ولم يأت "زياد"!. مستحيل!. إذا كانت المسابقة قد أقيمت من أجله. كأنك يا أبا زيد ما غزوت. هذا ما هتفت به "أميمة" بين استغرابها؛ لتستدعيه على الفور، وتركته يعبّر عن رأيه، ثم انبرت بصوتها الرقيق وباقتها تؤكد له؛ أن بمُستطاعه أن يكون ضمن الفائزين؛ بل وعلى رأسهم؛ لو أنه تفاءل وعمل من أجل ذلك. وهذا يتطلب التدريب بانتظام وجدّيه على الرسم، ومزج الألوان وانسجامها باللوحة و.. وما زالت الفرصة سانحة، والوقت ما زال طويلا حتى موعد التسليم.

– ماذا قلت يا "زياد"؟.

لم يتفوه "زياد" بكلمة، وبدا مترددا. والتردد في حدّ ذاته يُعدّ نجاحا؛ إذ كان مُصرّا على الرفض في بداية اللقاء. ويخرج "زياد"، وتشرد "أميمة". يبدو أنها تفكر في شخص آخر يساعدها في إنجاز المهمة الصعبة. وتدخل "سكينة"؛ فتضحك "أميمة" ضحكة خفيفة. بالطبع ليست "سكينة". وأخيرا لمعت عيناها!.

استجابت "سلمى" لرغبة "ميس أميمة"، وتلتقى "زياد" في يوم الزيارة. لم تسأله، وإنما هو الذى أخبرها بموضوع المسابقة، وصارحها بأنه لن يخوض التجربة خوفا من الفشل، وعندئذ ينطلق لسان "سلمى":

– لو خاف ابن فرناس، لما حلّق في الفضاء، ولما سافر الإنسان إلى الكواكب.

ماذا؟!. لقد مسّت "سلمى" وترا حسّاسا للغاية، ولقد تحدث زياد نفسه عن ذلك العالم المغامر وإن كان من منظور آخر. لكنها ... تستطرد "سلمى":

– ولو خاف الطيار من سقوط الطائرة لما خرج من داره، ولو ارتعش الجرّاح بفعل الخوف لما أمسك بالمبضع، ولتألم المريض حتى الموت. والجنود: لو أنهم خافوا من الموت لما دخلوا الحرب، ولما دافعوا عن وطنهم، وتركوا المعتدى يعيث الفساد فى بلادهم وديارهم. لو سيطر الخوف على الناس لتوقفت الحياة، ولتحولت البيوت إلى قبور تضم أصحابها الذين ماتوا جوعا. إن العلماء، والموسيقيين، والأدباء، والقواد و.. جميعا ذاقوا طعم الفشل، وإلا لما صاروا عظاما. الفشل طريق النجاح يا "زياد"، وإذا فشلنا مرة نحاول أخرى، وثالثة. اليأس من فعل الشيطان، ولا معنى له. بالإصرار يتحقق النجاح، ولكل مجتهد نصيب. أما رأيت عصفورا ينى عُشه فوق غصن شجرة. كم يتعب العصفور فى جمع القش: قشة من هنا، وأخرى من هناك.

جهد كبير، وساعات طويلة. وكم يسعد حين يكتمل القش، وفجأة يضيع تعبه هباءا منثورا.

– كيف؟!.

– إذ تأتى ريحٌ شديدة فتطيّر العش، ولا ييأس العصفور أو يندب حظه، وإنما يعود من جديد يجمع القش: واحدة من هنا، وأخرى و.. الخوف يأتى من داخل الإنسان، ومن خياله المريض، وكل خائف: جبان، وعهدي بك شجاعا مقداما.

لم يتفوه "زياد"؛ فماذا يقول، وإنما تطول النظرة بينهما، كما تطول قامة "سلمى" فى نظر "زياد"؛ لتبدو عملاقا تندسّ رأسه في السحاب!، ولم تكن "سلمى" بحاجة لأن تسأله رأيه أو قراره؛ إذ لمحت بريق عينيه، ولكنهما تبادلا ابتسامة.

(٤٤)

الرجل الذى طار فى الفضاء، والعصفور الذى لا يعرف اليأس!. أى دليل أقطع من هذا، وأى برهان أسطع!. لقد مسّت "سلمى" إدراكه، وصحّت مشاعره، وأرحبت أفقه، وشحذت همته؛ ليُقبل بعزم، وينطلق بحماسة إلى مساره الجديد، وما لبث أن أعدّ أوراقه وألوانه، وانخرط فى الأسباب وعينه على المركز الأول، والذى لا يرضى بديلا عنه. رسم كل ما وقع عليه بصره كما كان ينصح مدرس التربية الفنية. بدأ بزهرة البنفسج، وأشجار الحديقة و.. ومن وحى خياله أيضا؛ فرسم برج الحمام، والفلاحين الذين يعملون فى حقولهم، وأبا قردان الذى أعجب به؛ خاصة بعد أن عرف حكاية صداقته مع الفلاح، ورسم الساقية التى تديرها البقرة لتجلب المياه من باطن الأرض، وتوزعها إلى الجداول بالقواديس، ورسم الفلاحة التى تحمل الجرّة فوق

أسها، والكروان بعد أن عثر على صورته فى كتاب الطيور المغردة بالمكتبة. سم زياد الكثير!. لم يكن يدرى أنه موهوب فى الرسم، أو أنّ ولعه الشديد حرة القدم طغى على هواية الرسم لديه.

سعدت "أميمة" بنجاح خطتها في شغل "زياد"، واستنفاد طاقته وتحويلها إلى مجال حيوى آخر، أو أكثر حيوية ؛ فالإبداع بطبيعته يعوزه الوقت والجهد، وما تلبث أن تسرع إلى "الدكتور يوسف" لتزفّه البشرى بشأن انصراف "زياد" عن كرة القدم؛ لدرجة أنه يؤثر الرسم على أى شىء آخر حتى الطعام!.

وعلى عكس ما توقعَت؛ فلم يشاركها "الدكتور" فرحتها؛ بل أبدى استغرابه قلقه؛ موضحا أن الطفرة ليست طبيعية وغير مستحبة، والمفروض أن يتمّ هذا بالتدريج كطبيعة الاكتساب؛ إلا إذا كان زياد فنانا أصيلا، والموهبة في أعماقه تلحّ عليه وتؤرقه، وتتحين الفرصة للانطلاق، ويستطرد "الدكتور يوسف":

– وتغلّب الموهبة على الهواية أمر لا بد منه. ويا ليت هذا!. أمّا إذا كان أمرا عَرَضيًا فسرعان ما تزول آثاره وعندئذ قد يصاب بانتكاسة تنتفض "أميمة" مرددة:

إنتكاسة!.

– قلت قد يا أستاذة!. أى مُحتمل. هذا شأن العلم، ولله فى خلقه شئون.

(٤٥)

ما أسرع جريان الأيام!، وإنها لحظات من عمرنا تعدو بنا إلى النهاية الطبيعية. الغد موعد التسليم. عكف "زياد" ساهرا مع لوحاته يتأملها واحدة بعد أخرى لينتق إحداها. ما أصعب الاختيار!. كل لوحة أحسن من أختها، وكلٌ تحمل معنى وذكرى. عاد يتفحصها من جديد. أوقفته صورة "سلمى"

المبتسمة: هكذا رسمها؛ فالابتسام سمْتها. أخالها تخرج من الصورة، وتحرك شفتيها بكلماتها المضيئة:

– "ستقدرُ يوما يا زياد".

تذكر ما قالته عن الخوف والخائفين، وتذكر حكاية العصفور الذى لم يندب حظه، ولم يعاتب الأقدار التى أطاحت بعشه، وأكبر الظن أنه لم يتوقف عن الغناء!. يا له من عصفور فارس!، ويا لسلمى الإنسانة: هذه الدرّة التى يندر وجودها فى هذه الأيام!.

اختار "زياد" صورة "سلمى". وضعها بملف فى مقدمة الرسوم، وفى الصباح سلّمها لـ "ميس أميمة" التي أبدت لهفتها، وتفرّست فى ملامحه كأنما أرادت أن تقرأ أفكاره، أو تستشف ما يدور فى أعمقه. أبدى "زياد" دهشته وكاد أن يسألها، ولكنها فتحت الملف. طالعتها صورة "سلمى". هتفت:

– "سلمى"!. كأنها هى!.

وجعلت تشاهد الصور بين تعليقها:

– مدهش!. رائع!.

واشتدت دهشة "زياد"، حين اختنق صوتها بدموع الفرحة قائلة:

– أنت فنان يا "زياد"!. فنان أصيل بحق!.

شكرها "زياد" ولم يزد، ثم ذهب إلى حال سبيله، ولسان حاله يستوضح:

– أتتجمل"ميس أميمة"؛ أم أن رسمى انتزع إعجابها؟!".

أقيم معرضٌ لرسوم الصغار المتسابقين، وتوافد عليه المدعوون من كبار المسئولين، والأطباء، والمشرفون فى مجال الإعاقة والشئون الاجتماعية، كما تمّ انتُداب ثلاثة من كبار الفنانين؛ لتقويم الأعمال واختيار الثلاث لوحات الفائزة من بين مئات اللوحات.

أبهر الضيوف بإبداعات الصغار ، ورأوا ضرورة الاهتمام بالفكرة، ونشر المشروع بدور الرعاية المختلفة، مع التوصية بإقامته كل عام، أو كل ستة شهر.

وفى يوم الحفل توافدت أسر الصغار وذويهم. عانق "زياد" أفراد أسرته، وصافح "سلمى" ورحّب بها، كما استقبل "عصام" أفراد أسرته، و"سماح" أيضا. وجلس أفراد الأسر الثلاث بمقاعد الصف الأول؛ إذ كانوا أوّل الوافدين.

لوجوهُ جميعا تتألق بالفرحة، والأنظار كلها نحو المسرح؛ إذ يُفتح الستار. يبدو منضدة كبيرة بمفرش أخضر وعليها الجوائز: كأس وميداليات، ومظاريف. وفى أحد الجوانب منضدة صغيرة عليها جهاز عرض "مونيتور".

الصغار فرحين، وكلّ يداعبه حلم الفوز بإحدى الجوائز؛ إن لم تكن الأولى. إلا "زياد" الذى كان يعانى من القلق والتوتر. وتحاول "سلمى" تهدئته.

يدخل مسئولو الدار يتقدمهم "الدكتور صالح" المدير العام؛ لتدوّى عاصفة من التصفيق، يُحيّون الحضور، ويجلسون إلى المنصة، ويُستهل الحفل بتلاوة ما تيسر من آى الذكر الحكيم، ثم قام المدير العام بالترحيب بالحضور الذين شرّفوا الحفل، وبعدئذ يأتى دور "أميمة " لتعلن عن الفائزين. تصمت عدة لحظات؛ بينما تبدو صورة "سلمى" على شاشة جهاز العرض، ويعلو صوت "أميمة":

– الفائز الأول.

تتعمد "أميمة" الصمت بين ابتسامتها، والأعين ترقبها فى تشوّق؛ حين تهتف بطريقة إعلانية:

"زياد عمر نور الدين": عن لوحته: "سلمى"!.

لتضجّ الصالة بالتصفيق وصيحات الإعجاب و.. وفاصل من عناق "زياد" الذى أصابه الذهول!، ثم تعلن "أميمة" عن الفائز الثانى: "عصام حسين المليجى": عن لوحته: "مراكب فى النيل"، والثالث:

"سماح عبد المجيد جادو ": عن لوحتها: "ريفنا الجميل".

يتوالى التصفيق بينما يعتلى الثالوث الفائز خشبة المسرح بالترتيب؛ تلاحقهم عدسات المصورين. يحيّون الجمهور والفرحة تزين محيّاهم، و"أميمة" ترقب "زياد" ويدها على قلبها؛ فإنها اللحظات الحرجة. تسلم "زياد" الكأس. رفعه عاليا لينطلق الهتاف: زياد. زياد. زياد!.

– "ماذا؟!: نفس الهتاف و.. ولكنى لم أسجّل هدفا و..".

نقل بصره بين الكأس، وميس أميمة، والدكتور يوسف. وكل الرابضين خلف المنضدة الكبيرة ذات المفرش الأخضر. عجبا!: إنه ليس في ملعب كرة القدم و.. وما هذا الكأس؟!. نقل بصره إلى الصالة، حيث الأعين القلقة، والنظرات الحائرة. ليست هذه الجماهير! إنها خدعة إذاً!. ما زال يتلفت من حوله. التقت عيناه بعينى "أميمة"؛ التى غضّت طرْفها، وارتعشت أطرافها. الأعين على "زياد"؛ تتبادل نظرة تساؤل. ما الذي أصابه؟. ولم تبدّل حاله؟!. كان فى قمة سعادته منذ لحظات!. يهز رأسه كأنه ينفض عنها أمرا لا يريد أن يصدقه و.. خرج صوته خفيضا. علا تدريجيا:

– لا. لا. لا. لا!.

وما لبث أن طوّح بالكأس، وندّت منه صرخة انخلعت لها القلوب. وظل يصرخ والفزع قد بلغ مداه فى الأفئدة. مستحيل أن يكون ذهول الفرحة!. زاغ بصر "زياد"، وشعر بالأرض تميد من تحته. ترنح. تلقفته يدا "أميمة" قبل أن يسقط؛ ليعلو الصخب والضجيج والصياح والصراخ، ولتنطلق السيقان إلى

حيث "زياد"؛ الذى سرعان ما يُحمل إلى العيادة الطبية بين قلق المسئولين، ولوعة الجميع.

(٤٦)

حف الجمع بخطى متثاقلة، وكأن على رأسهم طائر الحزن الأسود. راحوا صامتين واجمين، وغدوا فرحين متهللين، وألسنتهم لا تكفّ عن الرغى والكلام!. هكذا حال الكبار الأسوياء، فما بالك بالصغار الرقاق؟!. يا الله!. قائق معدودة هى عُمْر فرحتهم؛ فما أقصر لحظات الفرحة!. كأنها ومضة خاطفة فى ليل الحزن الكئيب!، وما أعزها لأناس طواهم الأسى!. يا لتعس الصغار!. لقد ضنّت عليهم الأيام بساعة فرح تروّح عن قلوبهم وأنفسهم. أ يكون بلاءاً؟!. وأى بلاء أخفّ وطأة من العجز؟!. أكاد أضحك حتى الموت. كيف للزهور الرقيقة الواهنة أن تصمُد حيال رياح عاصفة عاتية؟!. إلا أن تقتلعها وتقذف بها إلى مكان سحيق. أو أنه بلاء للكبار ليمتحن الله قلوبهم وطاقتهم على الصبر. لعله ذلك و.. ولكن ما ذنب الصغار؟!. ماذا جنوْا وهم فى عمر زهور الصبار؟!. ماذا صنعت أيديهم ليفزعوا، ويسهدوا، وتترقرق أعينهم بالدموع؟.

بالله ماذا قلت؟!. أىّ شطط هذا، وأىّ مجون!. أ خرفتُ، أم خبلتُ، أم أصابنى الجنون؟. غفرانك ربى؛ ولتتجاوز إلهى عن زلاتى وترّهاتى، ولترحم قصور إدراكى، ومحدود فكرى، وبعض ظنى. ويقينى أن الخير كله فيما قسمتَ وقدّرت.

بعد الفحص الدقيق؛ جاء تشخيص "رفيدة" أن "زياد" يعانى من هبوط مؤقت فى الدورة الدموية إثر انفعال مفاجئ، وما تلبث أن تحقنه بعقار منشط للقلب، ثم طمأنت أهله وأحبّاءه الذين غادروا العيادة حامدين الله؛ إلا

"سكينة" التى أصرّت على ملازمة "رفيدة" رغم إلحاحها بأن تخلد إلى النوم بعد يومها الشاق، وجلست "سكينة" إلى الفراش ترنو فى لوعة إلى الملاك النائم.

هزت رأسها غير مصدّقه. منذ دقائق: كان محيّاه يُشرق بالسعادة ؛ بينما يلوّح للجمهور، كأنه أحد نجوم الفن!. بل هو نجم بالفعل بعد نيله الجائزة الأولى عن جدارة، ولم يكن هناك مجاملة، أو محاباة، أو من قبيل العلاج كما أكدت "أميمة"، وقد أثنت اللجنة على لوحته الفائزة وكل أعماله، وتوقعوا له مستقبلا باهرا فى مجال الفن التشكيلى.

لكم فزعت "سكينة" من أجله حين تبدلت سحنته، وترنح، وكاد أن يسقط. ولم تكن تدرى أنها تكنّ له كل هذا الحب، ولو أنها رزقت بولد لأحبته مثل "زياد"، ولزاد عليه نظرا لظروف إصابته.

لقد تبدلت نظرتها ومشاعرها نحوه، وانزاحت غشاوة كانت تحجب رؤيتها، وعادت تقوّم الأمور وتضعها في نصابها، واسترجعت مواقفه، وكلامه، ونظراته: إنها لم تكن تقدّر مدى صراعه وتحدّيه لإعاقته؛ والتي كانت بالطبع تؤثر على فعله وقوله، ومع ذلك لم يخطئ بحقها، ولم يتفوه بكلمة جارحة. أى نعم كانت ردوده جافة وساخرة، ولكنها لم تنطو على إهانة، أو خدش لكرامتها. ونظراته وإن كانت حادة وغامضة؛ لكنها ليست جريئة ولا وقحة كما كانت تظن.

ورأت أن حكمها عليه لم يكن صائبا؛ بل كان منافيا للحقيقة، ولقد قست عليه إذ اعتبرته حالة كغيره، ولم تكن تستوعب أنها حالة متفردة، حتى وقت الأزمة لتنجلى الأمور وتبدو على حقيقتها.

وما يُحسب لها أنها لم تحتك به، أو تحول بينه وبين اندفاعه وجموحه؛ ليس كي تعوّض نقصا أو ما شابه ذلك، وإنما خوفا عليه، وحرصا على مصلحته. حتى يفيق ليرى أمه الثالثة.. ولكي ترى بريق عينيه!.

(٤٧)

ولم تنمْ "أميمة"، وكيف يطيب لها النوم والبال مشغول، وفي القلب رهبة، وفي النفس لهفة!. جعلت تدور في الغرفة تقرّع نفسها وتلقي عليها اللوم؛ إذ توقع "الدكتور يوسف" ما صار إليه الأمر وكأنه يقرأ الغيب. ماذا؟!. أي غيب قرأ؟، وقد استند في رأيه على دراسات، ونظريات علمية. أجل و.. ولكن كان من المُفترض.. أيّ مفترض، ولم يكن سوى مجرد احتمال؟!.

إنها لم تقصّر في حق "زياد"، ولم تدخر جهدا من أجله، ولم يكن بيدها أن تحول دون أزمته؛ فقد نفذ السهم ولا حيلة. ولكن ليس هذا وقت العتاب والحساب، ولتطرح كل ذلك جانبا، ولتُعدّ إلى ما بعد إفاقة "زياد".

لقد هدأتْ بالا وارتاحتْ نفسا حين أفادت "رفيدة" بأن أزمة "زياد" عَرَضية سرعان ما يزول أثرها. هذا من الناحية العضوية، ولكن الأهم حالته النفسية، وما قد يطرأ عليه، وأشياء أخرى يجب مناقشتها مع "الدكتور يوسف"؛ فما تلبث أن تتخذ سبيلها إليه.

ويبدو أنه كان في انتظارها، ليدخل في لُبّ الموضوع موضحا أن الوثبة قد تأتي بسقوط مفاجئ، وبمعنى آخر: أن الطفرة أو التطور السريع في مُعظم الأحيان يُخلّف الانحدار السريع، ولكنه عاد وطمأنها بأن أولئك الذين يتصفون بالعزم والصلابة، ويتمتعون بالإصرار، وقوة الإرادة؛ نادرا ما يصابون بالانهيار، أو الإحباط النفسيّ والاكتئاب؛ حيث أنهم في حماية ذاتية.

واستطرد "الدكتور يوسف"؛ مؤكدا بأن "زياد" سيعود بإذن الله إلى حالته قبل الأزمة، ولا بد أنه سيحرص على تعويض ما فاته، ويمضى بجهد مضاعف فى مسيرته نحو أمنيته شبه الوهمية، ويتأتّى ذلك بعد محو الآثار النفسية مع توخّى الحذر، ومعالجة الأمور بحكمة ولباقة. ومن بالدار أعقل و كثر لباقة من "أميمة"؟. إلى جانب رقتها وحلو حديثها.. ومن الأحبّ والأقرب إلى قلب "زياد"؟. وبدورها تُرسل "أميمة" فى طلب إحدى المشرفات، كما تتصل بأسرة "زياد ، وسلمى".

صحا "زياد" من نومه، ولكنه لم يفق من وعكته. هكذا بدا لـ "رفيدة" و"سكينة"؛ ليتبادلا نظرة قلق. ثم ترقبانه. قعد "زياد"، وجعل ينقل بصره بينهما، ومحتويات الغرفة، ويحدّث نفسه:

– "أين زملائى" عصام، وحازم "و.. ما الذى حدث؟!، ومن جاء بى إلى العيادة. مع أننى. آه!".

وضع راحته على رأسه. بادرته "رفيدة" بالسؤال عن حاله وكيف أصبح. لم يكلف نفسه الرد وكأنما تسأل نفسها، ولعله كان مشغولا بحاله وما جرى له. همّت "سكينة" أن تقول شيئا، ولكن أشارت لها "رفيدة" بأن تدعه وشأنه. وقع بصره على الكأس والميدالية و.. جائزة تفوقه. شحب وجه "سكينة" وزاغ بصرها. شرد لعله يسترجع شريط الماضى القريب. هزّ رأسه كأنما ينفض فكرة عن ذهنه. برقت عيناه وتبدلت أساريره. توترت كل من "سكينة ورفيدة"!. التقطا أنفاسهما؛ حين أخرج دفتره، وأمسك بقلمه، وانبرى يسطر أحاسيسه، ويعبّر عن مشاعره، ويُفرغ الشحنة التى ثقلت على صدره.

– "لستُ أدرى كيف هُنت عليكم لتستخفّوا بى، وتسخروا منّى؟!. كيف تخدعونى وتضيّعون وقتا طويلا من عمرى القصير؟، كنتُ سائرا بخطى حثيثة

ى سبيل هدفى.. وقطعتُ شوطا طويلا، ولكنكم أعقتم مسيرتي. كنت قاب قوسين أو أدنى، ولم يكن يبقى سوى القليل. ألا تصدقونى؟. إسألوا "سلمى": فإنها لا تكذب ولا تتجمل، ولا تعرف إلا الحق والصدق. اسألوها فهى التى قلت: إنى سأقدر يوما، وما هى إلا مسألة وقت، والصبر أيضا وإن طال.

سألوا الكروان الذى يبعث فى نفسى الأمل بدعائه الخالد. لا أسكتَ اللهُ دعاءك صديقى الحميم. اسألونى أنا فإنها محنتى وقضيتى، وإنى أبصر أمل الخلاص فى أفقى: سأقهر العجز، وأحطم القيد وأنال حريتى. سأخلّص نفسى كما خلّصتُ الأسد، وعصافير الكنارى.

لستُ فنانا، ولن أكونَهُ ما حييت، ولست أبغى حفلاتكم، وجوائزكم، وهتافكم. ولتكن لغيرى، ولمن هو أحق بها منّى. لقد أخطأتم فى حقّى وسآخذ حذرى من الآن فصاعدا، ولن تنطلى علىّ ألاعيبكم، ولن أغفل أو أسهو عن أحابيلكم وتدابيركم. لقد خُلقتُ لاعبا؛ أنتزع الإعجاب بمهارتى وأبهر الجماهير ببراعتى، وأبدا لن تستطيعوا خداعى يوما".

ما أن يفرغ "زياد" من الكتابة؛ ليسأل عن "أميمة". تبادلت "سكينة ورفيدة" نظرة استغراب: فلماذا "أميمة" دون غيرها؟!. لم يسأل عن أمه، أو أبيه، أو أخته، أو "سلمى" التى خلّدها فى لوحته؟! أخبرته "رفيدة" بأن أمه و.. ولم تستكمل "رفيدة"؛ إذ رأته يختطف عصاه فى عصبية.. وحاول أن يقف ولكنه أخفق. أعاد المحاولة لتمدّ "سكينة" يدها لتساعده ولكنه أبعدها. أيضا لم يتعمد إحراجها، ولكنه يأبى ذلك؛ لتتدخل "رفيدة" وتسأله أن يعود لرقاده فما زال متعبا و.. وتدخل "أميمة" فى هذه اللحظة لتلتقط كل من "سكينة ورفيدة" أنفاسهما؛ حين اندفعت "أميمة" إلى "زياد" لتعانقه، ولينفجر بكاؤه ونشيجه، بين تأثر "رفيدة"، ولم تستطع "سكينة" أن تكبح دموعها التى انسابت على

وجنتيها. وتُجلسه "أميمة"، وما أيسر أن تُعيد إليه الهدوء!. تلمح "أميمة" الدفتر. سألته أن تُلقى نظرة. تردد ولكنه لم يعترض. تناولت الدفتر، وقرأت مقالته. التفتت إليه. قرأ فى عينيها نظرة عتاب. طأطأ رأسه بينما تشرّب محيّاه بحمرة الخجل، لتتبدّى الدهشة فى عينى "أميمة":

–"عجبا!. من الذي أرى؟!. أ هذا "زياد" الذى يدارى وجهه خجلا. أم يخيّل إليّ؟!. أم أننى أحلم؟!".

(٤٨)

مفاجأة لم تخطر ببال "أميمة"، ولقطة نادرة عنوانها وفحواها: الشعور بالذنب الذى يعقبه الندم، ومن النادم؟: "زياد" الرجل الصغير الذى يفى بوعده، والذى إذا قال فعل، وكأنه أقسم بأغلظ الأيمان!. أى خطوة هذه؟! بل أى وثبة لمحو آثار الأزمة؟!، واستثمارها كما تبغى "أميمة" وتتمنى.

قاسية هى لحظات الحرج حتى على الرائى؛ فلم تشأ "أميمة" أن تطيلها على "زياد"؛ لتربّت على كتفه، وتمسح براحتها على شعره. ما أرقّ أناملها!. فقد صفحت عنه إذاً؛ ليلتفت إليها بكل محيّاه ، ويتبادلا ابتسامة رضا وامتنان.

لم تدع "أميمة" الفرصة تُفلت من يدها، فراحت تحدثه بشأن الموهبة منحة الله للموعودين من عباده. الأمانة التى يجب صوْنها والحفاظ عليها، وضرورة الاجتهاد فى تنميتها وصقلها؛ لتثمر فنونا وإبداعات تجدد شباب الحياة، وتُعيد إليها رونقها، وتُضفى عليها الحُسن والبهاء.

والفنان أو المبدع؛ بطبعه متأملا الكون؛ دائم البحث عن مواطن الخير والجمال، إنه بحق رسول الإنسانية، ويحمل على عاتقه تهذيب النفس البشرية، ورفعة شأن الإنسان؛ باعتباره سيد الأرض. والحب نبع الجمال، وأسمى معانى الحياة.

– ليس فى الأمر خدعه ولا سخرية؛ فكيف نخدع أبناءنا أو نسخر منهم؟!. إننا كمؤسسة علاجية وتربوية، لا همّ لنا إلا رعية شئون الصغار، والأخذ بأيديهم، وتوفير كل سبل الراحة بما يحقق مصالحهم ومطامحهم.

الحقيقة أنك موهوب يا "زياد"، ولم تنل الجائزة من فراغ، وإنما عن جدارة، والموهبة ليست لهوا أو مضيعة للوقت، بل إنها مسئولية كبيرة، وحق المجتمع على كل موهوب، وإهمالها يعنى تفريط فى الواجب، وإلا فما معنى أن تولد الموهبة مع الإنسان.

الفن رسالة سامية، والفنان شخصية عالمية إنسانية. الدنيا أرضه، والحياة وطنه، وكل ولائه وانتمائه للفن والإنسان. وما ينطبق على الفنان ينطبق على البطل الرياضى. الفن عطاء والرياضة أيضا عطاء، وليس من تعارض بينهما، ولا ضير من ممارستهما بجانب الدراسة. وليس هذا من قبيل التصور أو التخيل، وإنما هو موجود على أرض الواقع، والأمثلة كثيرة على المستوى المحلى والعالمى.

كلام صادق ينبع من القلب، وحديث عاقل بعيد عن المآرب والهوى: جرى على لسان إنسانة عالية النفس والهمة؛ أقل ما توصف به أنها ملاك يبتغى الخير والسعادة للآخرين.

(٤٩)

ماذا يفعل "زياد" إزاء فعلته؟!: كان عصبيا وجِلفا. كان يجب ألا ينساق وراء انفعاله، وأن يتريث قبل أن يكتب كلمة واحدة. لقد أخطأ فى حق أحبائه وأقرب الناس إلى قلبه. قابل الإحسان بالإساءة، والفضل بالنكران. أي جحود هذا؟!. أيعتذر؟!. الاعتذار وحده لا يكفى. أو يسكب دموع الندم بين يديها؟. ولكن الرجال لا يبكون بين أيدى النساء. حتى أمه الثانية؟!. ولو..

إنه متيقن أن "ميس أميمة" صفحت عنه دون الاعتذار أو البكاء. هذه هي!. امتدت يده كي يمزق مقالته أو ما ارتكب قلمه. ولكن حالت "أميمة" دونه؛ إذ أمسكت بيده قائلة بجد:

– الأدب أيضا: فن.

– الأدب!.

– قد تكون متعدد المواهب.

ماذا؟!. نظر إلى عينيها؛ علّه يستشف الحقيقة، أو تشي بها عيناها. ارتدّ إليه بصره؛ فلم ير أثر الزيف؛ بل رأى الصدق، وعين اليقين. التفت إلى الكأس وعلى شفتيه ابتسامة، وفي عينية دعوة. وتناوله "سكينة" إياه وقد غمرتها الفرحة، وزغرودة كادت أن تنفلت من لسانها!. رفع "زياد" الكأس ابتسامة الفوز تزين محيّاه، وأخال بأن الجماهير تهتف باسمه كفنان فاز تؤا بكأس التفوق. ما أعظم الجماهير!، وما أعجب حالها!. لتراهم يتجشمون المتاعب ويلاحقون النجوم والأبطال في كل أوان ومكان. يفرحون لهم، ويصفقون حتى تلتهب أكفّهم، ويهتفون حتى تبحّ أصواتهم، وما دفعهم سوى الحب: أرفع أوسمة الحياة!.

تفتح "أميمة" حقيبة يدها، وتخرج أسطوانة، وتقدمها إلى "زياد" بين ابتسامتها:

– تفضل يا "زياد": هدية "ماما أميمة". تسجيل لنهائي كأس العالم الأخيرة..

يتهلل محيّا "زياد"، وما يلبث أن يعانقها. وفي دلال تدعو "أميمة" نفسها لمشاهدة المباراة وتشاركها كل من "سكينة ورفيدة". ولأول مرة لم يدحق بـ "سكينة" الملل طوال المباراة؛ مستمتعة بالمشاهدة، متمنية ألا تنتهي!؛ لتعلّق في خفة ظل:

– يبدو أننى أصبت بعدوى المشاهدة ، ولن تفوتني مباراة بعد اليوم ليضجّوا جميعا بالضحك ؛ بينما كان "زياد" يهنئها بعينيه!. لقد أحبت "سكينة" كرة لقدم من أجل "زياد"!.

وعصْر ذلك اليوم تأتى "سلمى" برفقة أسرة "زياد" لزيارته حسب اتفاقهم مع "ميمة"، وفوجئ بهم زياد يقدمون له الهدايا: كرة قدم، وزىّ كامل يحمل اسمه ورقمه، وحذاء!. عانق "زياد" أفراد أسرته، وشدّ على يد "سلمى" قائلا فى نفسه:

– "حتى أنت يا "سلمى"!. لقد أغرقتنى بأفضالك. ليتني أردّ بعضها يوما!".

(٥٠)

وفى اليوم التالى يبرح "زياد" العيادة بعد أن برئ من أزمته، وسرعان ما يلتقى بأقرانه أصدقاء الألم. كان لقاءا حارّا فقد اعتصرهم الشوق رغم قصر فترة الغياب. تحاوروا، وتحاكوْا، وضحكوا من الأعماق، وكم دهشوا حين أراهم هدايا "سلمى" وأسرته، وتردد تساؤل فى أعينهم:

– "ماذا يفعل بها "زياد"؛ خاصة الحذاء؟!".

كان "زياد" بقاعة التسلية حين يزوره طيف "سلمى" تردد عبارتها:

– "ستقدر يوما يا زياد".

عندئذ يتسلل من القاعة إلى عنبر النوم... فتح صيوانه، وأخرج كرة القدم، والزىّ، والحذاء. نقل بصره بينها، وما لبث أن ارتدى الزيى كاملا!. وحمل الكرة، وعرج إلى ركن بفناء الدار. ركن العصا جانبا. واستطاع أن يقف بدونها. نقل بصره بين الكرة أمامه وحائط السور. سدّد برجله السليمة على الحائط. ينزلق بينما ترتد إليه الكرة. نهض بصعوبة. قرر أن يسدد باعتماده على العصا. نجح وجعل يسدد. سئم اللعب. أخذ الكرة واتخذ سبيله إلى

عيادة العلاج الطبيعى. التقى بالطبيب الذي تأمل زيّه في دهشة واستغراب؛ ليبادره "زياد" بسؤاله عن كيفية التخلص نهائيا من العصا. تعجب الطبيب لسؤاله الذى يُطرح عليه لأول مرة. فكر برهة، ثم أجاب: صعب.

– ولكنه ليس مستحيلا.

– لا شيء مستحيل؛ مع استمرار العلاج والتدريب المنظم، والتجربة. وقبلها جميعا: الإصرار.

وأيضا يلفت نظر الطبيب: ذلك الوميض العجيب، الذى تألق فى عينىْ "زياد"؛ الذى يسبقه إلى الأجهزة.

لم يؤجل "زياد" ساعة ولا دقيقة، ولم ينقطع يوما؛ متّبعا نصيحة الطبيب فى استمرارية العلاج الطبيعى، والتدريب الرياضى المُنظَم، ومحاولته المشى بدون عصا... لقد أخفق مرة، وأخرى، ومع الإصرار وتشجيع الطبيب وفّق أن يخطو خطوة، وأخرى: بشرى سارّة: رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة، وها هو قد خطا أكثر من خطوة؛ فسيقطع الألف ميل إذاً. لكم أحب "زياد" "الدكتور" أحمد طبيب العلاج الطبيعى؛ الذي وسّع دائرة الأمل فى أفق حياته؛ حين اشتد بريق عينيه لمعانا وتألقا!.

(٥١)

تُعلَن الدار عن رحلة الأهرام، ويدعو "زياد" صديقته "سلمى"؛ التى ترافقه الرحلة. تتوقف السيارة أمام الأهرام: رمز الحضارة المصرية أقدم الحضارات وأزهرها على مرّ التاريخ. ترجّل "زياد"، وعيناه على الهرم الأكبر. ينقل بصره من قمته إلى سفحه كالمشدوه. تجمع "ميس أميمة" أفراد الرحلة لتُلقى إليهم التعليمات، ثم ينطلق الصغار؛ حين يعرج "زياد" ناحية الهرم. أصبح تحت السفح. يصعد الهرم ببصره حتى القمة، ثم ينزل ببصره أيضا حتى صخرة

معنها: "رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة". ما زال يتطلع إلى الصخرة. برقت عيناه. شرد. أطلّ بعين خياله. رأى نفسه يُلقى بالعصا. يحاول أن يخطو. يأتي إليه صوت "سلمى" بالكلمات التى تنير طريقه، وتقوّى عزمه، وتشد أزره:

- "ستقدر يوما يا زياد".

ينقل قدمه ويخطو خطوة، وأخرى ، وثالثة. ويُسرع الخُطى!. يُصبح تحت سفح الهرم. يُلقى نظرة إلى أولى صخوره، ثم إلى السفح.

يأتى إليه صوت "الدكتور أحمد" الواثق: "لا شيء مستحيل".

يمدّ يده إلى الصخرة. يتسلقها. ويقف فوقها. ثم يتسلق الثانية، والثالثة.. يلمس الصخرة إياها. وقف فوقها تغمره السعادة. يُلقى نظرة إلى الأرض. يرى الناس صغارا كالأقزام!. إنه الوحيد عملاق هذا المكان!. أخال بأنه رأى أقرانه، كما رأى "سكينة وأميمة". "ميس سكينة": كعادتها تصيح وتذهب هنا وهناك. يبدو أنهم يبحثون عنه؛ وقد علاهم الفزع والجزع. وعندئذ يُرسل ضحكاته فيرنّ صدّاها فى الفضاء. ثم يهتف بأسمائهم. يهرولون جميعا إلى الهرم الأكبر، وقد شملهم الذعر والهلع. ويردد "زياد" بأعلى صوته:

- "لا شيء مستحيل. أنا الذى كسّرت القيد، وحطمت الصعب، وقهرت المستحيل. أنا البطل "زياد"!. أنا البطل "زياد"!.

ويسمع أصواتهم تنادى عليه، كأنها تأتى من أعماق جُبّ. ويستجيب "زياد" للنداء، وينزل صخرة بعد أخرى. ويندفع إليه الجميع وقد رُدّت إليهم أرواحهم.

يفيق "زياد" عندما تربّت "سلمى" على كتفه.. ماذا؟!: إنه على أرض الواقع، وما زال يعانق الهرم بعينيه. يلتفت إليها هاتفا: سلمى!.

- هيا. الجميع في انتظارك.

وفى لقائه مع "أميمة" يؤكد "زياد"؛ أنه ألقى بالعصا، وخطا نحو الهرم الأكبر.. وتسلقه حتى الصخرة التى حددها و..

– كان مجرد حلم. أو خيال.

– أعرف هذا.

– تعرف؟!.

– أجل، ومن الممكن أن يُصبحَ الحلمُ حقيقة، والخيالُ واقعا ملموسا و.. وأقذف بالعصا، وأمشى، وأجرى، وأطلع الشجرة، وأتسلق الهرم، وألعب كرة القدم، وأسجل الأهداف.

– نعم و.. ولكنك تحتاج لـ.. لمعجزة.

– معجزة!.

(٥٢)

كلمة هائلة وقعت من ثغر "أميمة"، ولا تدرى أين استقرت، وكيف كان وقعها على "زياد". أى رعونة هذه؟!. كيف ترتكب هذا الخطأ الساذج؟!، وأين خبرتها كأخصائية اجتماعية؟!. كان يجب أن تفكر فى كل كلمة قبل أن تفوه بها. حاولت أن تصحّح الوضع موضحة أنها لم تكن تقصد. توقف الكلام على لسانها. اكتشفت أنها تكلم نفسها!. إذ كان "زياد" فى عالم آخر يردد هذه الكلمة السحرية التى رنّت فى عالمه، وتردد صداها في قلبه وكيانه. لعله كان يبحث عنها، ونطقت بها "أميمة"؛ بل أنطقها الله و.. ينسحب "زياد"، ويخطو كالنائم، ولا تملك "أميمة" إلا أن تشيّعه بنظرة إشفاق لا تخلو من القلق والخوف، ووخز الضمير!.

وفى رحاب زهرة البنفسج يسطر "زياد" أهم خواطره:

- 'المعجزة: كلمة هزتنى، ومعنى أسرَنى. المعجزة: كنت أحسّها فى كيانى، كنت تُطلُّ بداخلى، وتتردد فى أعماقى. كانت تائهة فى عالمى إلى أن فاهت بها الأم الحنون!. إن حبّى لها يعدل حبى لأمى".

يجلجل الكروان بدعائه؛ ليرنّ صداه فى أعماقه:

- "المُلك لك لك يا صاحب المُلك".

فى المكتبة؛ يواصل "زياد" الكتابة معبّرا عما يجول بخاطره:

- "قالوا وما أعجب ما قالوا!. ولّى زمن المعجزات. كيف والمعجزات من حولنا، وأعلانا، وأسفلنا، وفينا؟!. كيف وصاحب الكون: العلىّ القدير؟!. قولٌ بلا ريب ينطوى على سفهٍ وقلة عقل؛ فكل الأزمنة صالحة لحدوث المعجزات، وستبقى لأن الله باق، وهو الحى الذى لا يموت، وهو وحده القادر على انتشالى من مخالب عجزى، وإغاثتى من هول محنتى، وإن كان بلاءاً؛ فاللهم لا اعتراض؛ بل أسأله أن يرفعَهُ عنّى ويُفرّج كربتى: إنه أرحم الراحمين.

وفى الليل الساكن، والبدر فى تمامه، والنسيم يهفّ برائحة الورد والزهر؛ كان "زياد" بـ "فراندة" الدار يشخص للأفق اللانهائىّ متأملا الكون من حوله، ومفكرا فى الملكوت، والقمر فى كبد السماء يُرسل بنوره الفضىّ. ويخفت نور القمر؛ إذ تزحف غمامة تغطيه وتحجب نوره، وما تلبث أن تنقشع الغمامة، ويبدو القمر أسطع نورا وأشد بهاءا!، وجرى الكلام على لسان حال زياد: "المعجزة من صُنعِ الله؛ فأين صُنعى؟! و.. كيف أسأله النجاة من بلوتى؟!. ماذا قدّمت لأكون جديرا بمنحة الله؟، ماذا بذلت لأحظى بالوسام وأنال شرف المعجزة؟، ماذا وقد قيل: "وما نيلُ المَطالِبِ بالتمني، ولكن تؤخذ الدنيا غلابا. لا بديل عن الحرب!".

يشقّ السكون أذانُ الفجر. يشتدّ بريق عينىْ "زياد": ثم ينهض لتلبية النداء.

(٥٣)

ومع انبلاج الصبح يتبدى الشعار في ذهنه: "كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ": فلا رضوخ ولا استسلام، ولا بديل عن القتال؛ وإلا فَقَد لبطل كل شيء، وضاعت حياته؛ حيث لا ينفع ندما، ولا يُجدى بكاءا حتى الموت.

كُتِبَ على "زياد" أن يكون لاعبا. هكذا خُلق ولا رادّ لقضاء الله، ولن يرضى بغيره وإن اشتد القتالُ وحَمِىَ وطيسُه، وليس من يحق له الاعتراض: فهو وحده الذى يتحمل مسئولية قرار الحرب وما يُسفر عنها: "هزيمة منكرة، أو نصر مؤزّر". ولا ضير أن يمارس الفن بجانب الرياضة، وإن علم هذ' مؤخرا؛ فلا يُنقص من قدره، ولا يُقلل من شأنه، وليُرجئ الفن آنيًا، وليطرحه جنبا؛ إلى أن يقضىّ اللهُ أمرا كان مفعولا.

الغرضُ ثابت، والهدف واضح لن يحيد عنه، ومن أجله يخوض الحرب وإن طال أمدُها. وإنها حرب أقرب إلى الصراع، وأدواتها معنوية تنبع من الذات، والغلبة لمن يصمد فى الحلبة حتى الرّمق الأخير.

والبطل فارس مغوار: ذو نفس أبية، وقلب جسور، وليس من شيمته التراخى والتخاذل، أو الفرار من المواجهة. ولن يتوانى عن سحق عدوه، وقهر عجزه؛ ليحسم الصراع لصالحه.

لقد حدد ساعة الصفر: "فى التوّ واللحظة": الآن، واتخذ سبيله إلى ميدان المعركة حيث عيادة العلاج الطبيعى؛ فهناك نقطة البداية فى مسيرة النضال.

يدخل البطل مرفوع الهامة، يلوح فى عينيه الثقة، ورغم عرجه تبدو فى مشيته الهمة والحيوية: هكذا رآه "الدكتور أحمد'؛ الذى يشتد إعجابه بـ "زياد' كل يوم عن ذي قبله، ويعدّه نموذجا نادرا لم يصادفه، وتحدثه نفسه بأن الشعاع

لـى ينبعث من عينيه، لا بد أن وراءه سرّ غامض، أو أمر ذو بال!، وما أشد شغفه لأن يقف على المخبوء وراء البريق!. لكم أحبّه، ولكم تمنى أن تواتيه الفرصة، ليمدّ إليه يد العون مهما تكلف من بذل وجهد. ويلتقيان لقاء الأحبّة، وعلى شفتىْ كل منهما ابتسامة صافية تنبع من القلب.

(٥٤)

يبدو أن "زياد" أتى بجديد؛ إذ تمّ عقد جلسة بناءاً على طلبه، وقد باح بالقرار المصيرىّ الذى اتخذه، أو الوعد الذى قطعه على نفسه، ولن يحنث به، أو يَعْدِلَ عنه. ذلك أنه سيعتمد على نفسه دون العصا، وإنه على أهبّه لاستعداد لتنفيذ القرار، وسيبدأ العدّ التنازلى فى التوّ ومنذ اللحظة.

قرارٌ جرئ وصعبٌ للغاية، ولكنه ليس مستحيلا؛ خاصة وأن صاحب القرار له رغبة أكيدة فى الشفاء، يدعمها ما يتصف به من الإصرار وقوة الإرادة. ولم يكن "أحمد" أقل حماسة من "زياد"؛ ليعكفا على وضع برنامج علاج خاص: يتأسس على تدرّج جرعات العلاج، وتكثيفها بناء على درجة استجابة الحالة طوال مرحلة العلاج؛ التى تستغرق أسبوعين على وجه التقريب.

ويبدأ العلاج أو الصراع. مع الأجهزة تارة، والتدريبات الرياضية تارة أخرى. لم يُهمل زياد لحظة، ولم يتراخ ساعة، ولم يُرجئ تدريبا أو.. ويقطع الساعات دون كلل أو ملل، ودون أن تُخدشَ صلابته، أو يَخمد لهيبُ حماسته. وكان على "رفيدة" أن تنسق العلاج، وتزيد جرعاته؛ تمشيا مع حالة "زياد" التى تتقدم يوما بعد آخر.

وكلما تحسنت حالة "زياد" كلما احتدم الصراع واشتدت حميّته كلما أحسّ "زياد" باقتراب لحظات الحسم، ودنوّ الأمل. ولا عجب أن يكون الشعور نفسه فى وجدان الطبيب الشاب؛ الذى يتحرّق شوقا إلى ساعة النصر.

وبالفعل تحسنت حالة "زياد" على أثر العلاج والتدريبات، وكانت دهشة "عصام" حين رأى صديقه يخطو بدون العصا: "ما الذى يحدث؟!". وماذا فعل "زياد"؟!. إنه لا يفرق عنه شيئا!. كيف يخطو دون الاعتماد على عصا مثله، ومثل الآخرين؟!. إنه لا يستوعب ما يجرى أمام عينيه، ولا يدرى: أيفرح أم.. حاول أن يحذو حذوه! تعثر. إنكفأ. حاول من جديد وقد اشتد عناده. أخفقت كل محاولاته. كاد أن يصرخ، حين كان "زياد" مستمرا فى خطاه. وبالطبع كانت الفرحة تضئ محيّاه، ولا بد أن قلبه يرقص سعادة وطربا. ما زال "عصام"يرقبه، وقد بهت وجهه، وانتابته الحيرة، وأطلت الغيْرة من عينيه!.

(٥٥)

أيقن زياد من نجاحه؛ فطرح عصاه، وجعل يحدثها مستشعرا نشوة النصر:

– "أىْ عصاى: أشكرك وأثنى عليك. أعترف بأنى أخطأت فى حقك وقت أزمتى وخنقتى، وآمل فى عفوك وصفحك، كفاك ما عانيتِ من أجلى. الآن أستغنى عن خدماتك؛ فلم أعد بحاجة إليك. لن ألحق بك أذى أو أقذف بك، ولكنى سأحفظك ذكرى لأيام محنتى".

واستكمالا للمسيرة؛ لم يتوقف "زياد" عن تدريبات المشى بجانب العلاج الطبيعى و.. انتشر الخبر عن طريق "عصام"؛ الذى ما قصد الوشاية ولكن لغرابة الحدث؛ حتى بلغ "سكينة" لتهتف فى نفسها:

– "معقول!. إنه يضرّ بنفسه".

وكان يجب أن تتحقق بنفسها؛ فسعت إلى الحديقة. رأته بالفعل يخطو بدون العصا. شهقت:

– "إننى لا أخشى المساءلة، أو حتى الفصل بقدر ما أخاف أن يُصيبَهُ مكروه".

أبطأت الخطى حتى لا تفاجئه. رآها ومع ذلك لم يتوقف. حاورته فى هدوء، أمدت خوفها عليه، ولكنه لم يُنصت إليها فى غمرة سعادته بنجاحه، كادت أن تصيح فيه و.. لن يجدي صياحها؛ فآثرت الانسحاب؛ فلن يطيعها حتى "لو عجنت عجين الفلاحة"، أو جعلت من أصابعها العشرة شمعا منيرا!.

جاءته "أميمة" التى اشتد قلقها، وحاولت أن تُثنيه ولكنه أبَى وسدّ أذنيه عن أى كلام يتعلق بالعصا حتى أنه قال فى ثقة:

– لن أردّ يدك لو ناولتنى العصا؛ سآخذها بالطبع، ولكن لأكسّرها ، وكم يعزّ علىّ ذلك لأنى أعدّها ذكرى.

– ذكرى؟!.

وأدلت "رفيدة" بدلوها كطبيبة تباشر مسئوليتها، وكان قد فرغ صبره فصاح قائلا:

– دعونى من فضلكم!. أتبغون أسرى ومذلتى!. حرامٌ عليكم. لماذا تحاربونى؟!. دعونى أواصل مسيرتى، وإنى على ثقة من نجاحى والشفاء من محنتى.

– ولكنه خطرٌ عليك وأنا المسئولة عن.

– أليس من فائدة!. فلأضع حدّا لهذه المهزلة.

– مهزلة!.

(٥٦)

وتركها غارقة فى ذهولها، وجعل يخطو متساندا على الحوائط والأشياء والأعين عليه، وقد تباينت المشاعر بين معجب، ومنبهر، وذاهل. ورأوْه يقصد غرفة المدير العام، وجعلوا يتساءلون عن سبب لقائه بالمدير العام؛ أ ليشكو

"سكينة"؟. أم "رفيدة". ولكن "أميمة" استبعدت ذلك مؤكده شهامته، وانه لا يُقْدِم على مثل هذا.

طال الانتظار حيث امتد اللقاء لأكثر من ساعة!. تُرى فيم يتحدثان؟!، وأىّ موضوعات تستغرق كل هذا الوقت؟!. السبب مجهول لدى "أميمة"، و"سكينة"، و"رفيدة". و"أحمد"، والجميع فى شغف ولهفة للوقوف على سبب اللقاء، وما قد يُسفرعنه. أخيرا فُتح الباب، ورأوْا المدير العام يودّع "زياد"!. يا لهذا الصغير الذى يمشى شامخ الأنف متئد الخطى، وكأنه فارس عاد منتصرا من ساحة الشرف! مشهد لا يُنسى، ولن ينمحى من الذاكرة. الجميع فى صمت وكأنهم حرصوا على ألا تفوتهم لحظة من هذا الحدث التاريخى، واكتفوا بالتطلع إلى البطل الصغير التى تُظلل محيّاة الثقة، وتُرى الصرامة فى شفتيه المُطبقتين، والتمرد فى خصلة شعره النافرة الثائرة، وعينيه النافذتين التى تتلألأ بالبريق العجيب.

الأبصار مأخوذة بـ "زياد" الذى ينقل قدما ويزحف بالأخرى دون عصا. لقد انتصر البطل، ووضع حدّا للمهزلة. استطاع أن يُثبت ذاته، وها هو يسير في عزة وخيلاء، ولقد اختلطت المشاعر حياله: بين مأخوذ، ومنبهر، ومعجب، وفرحان!.

ما أسعد الطبيب الشاب الذي تقاسم معه شوطا طويلا في طريق النضال نحو الأمل المرتقب!. اندفعت إليه "أميمة". عانقته بينما خنقتها دموع الفرحة!. طبع قبلة على جبينها ويدها. عانقته "سكينة" أيضا!. والصغار تباينت مشاعرهم بين الدهشة، والغيْرة، ونظرة بعيدة إلى الحلم الجميل!.

دعا المدير العام لاجتماع طارئ لكل الأطباء بمختلف تخصصاتهم، والأخصائيين، والمشرفين قال فيه:

– إن بين أيدينا حالة فريدة لم نصادفها، ولعلنا لم نقرأ عنها، أو نسمع بها؛ بما تُعدّ فرصة، أو منحة القدر إلى الدار؛ الأمر الذى يستوجب العناية والاهتمام بالحالة، وتتبّعها، والتعاون والتنسيق؛ فى معمل الأبحاث والدراسات. وإنى على يقين أنها ستكون فاتحة خير لأبحاث إضافية، وتطوير أساليب العلاج الطبيعى والنفسى والعضوى. مع الحرص على تنمية القدرات الخاصة لدى المعاقين، ومن الطبيعى أن تُسفرَ الأبحاثُ عن بوارقِ أملٍ، لمئات الآلاف من زهور البشر، أسرى المرض اللعين؛ آملين إبراءهم من آلامهم النفسية والعضوية؛ أو على الأقل تخفيف حدّتها، ولتجد السعادة طريقها إلى قلوب الصغار ملائكة البشر.

(٥٧)

تبنّى "الدكتوريوسف" الدراسة، والتى أوْلاها عنايته، وكان قد قطع فيها شوطا لا بأس به؛ منتهزا حماس الأطباء، والأخصائيين، والمشرفين؛ مستعينا بتقاريرهم السالفة والحالية. إلى جانب تقرّبه من "زياد"؛ الذى يعجّل بإنجاز المهمة.

حين كان "زياد" ماضيا فى صُنعه، ومواصلا مسيرته بخطى حثيثة، وبحيوية منقطعة النظير. سواء فى العلاج الطبيعىّ، والتدريبات الرياضية، وما يتبعه من إرشادات "أميمة"، و"يوسف"، ولم يكن بحاجة ممن يستنفر همته، ويزكّى لهيب الحماس فى صدره: إنه يعرف بُغيته، وهو الذى عبّد الطريق نحو هدفه، وهو الذى عليه الانطلاق حتى يقبض عليه ويعانقه.

وفى خضمّ ذلك لم ينس واجبه نحو الله، بل كان حريصا أشد الحرص على أداء الفرائض، وتلاوة القرآن الكريم، ومناجاة العلى القدير أن يُفرّج كربته، ويُجيره من محنته.

إلى جانب اختلافه إلى المكتبة ليسدّ نهمه وشغفه إلى المعرفة؛ بقراءة الكتب المختلفة، وإقامة الندوات المُصغّرة، والتى كانت تضمّ بعض أقرانه بإدارة أمينة المكتبة، والتى أثمرت عن عمل مجلة ثقافية أسبوعية يحررها الصغار بإشراف أمينة المكتبة وبرئاسة "زياد"، والذى كان ينشر فيها أفكاره، وخواطره.

ولم ينس القائمين على علاجه، والمشرفين؛ فكان يقتنص الدقائق ليقضيها معهم بين مداعباته، وتعليقاته الطريفة؛ التى تنُمُّ عن الذكاء وخفة الظل، ولكم أحبته "سكينة" لدرجة أنها قررت لو رُزقت بمولود ذكر ستسميه "زياد"، وسألتها "أميمة"، لو كانت أنثى، فأجابت دون تفكير:

– أيضا سأسميها "زياد"!.

ليصخبا بضحكة من الأعماق.

وكان "زياد" بطبيعته حريصا على توطيد أواصر الحب مع أقرانه زملاء المحنة، ولكم أحبوه، ورأوْا فيه الأسوة والمثل الأعلى الذى يحذون حذوه، ويسيرون على نهجه راجين فك قيدهم، وخلاصهم من الأسْر والعجز.

ولم ينس صديقته زهرة البنفسج التى يبثها مشاعره، ولواعجه، وأحلامه.. و"سلمى" التى حُفرت صورتُها في مخيلته؛ معترفا بفضلها ومتذكرا مواقفها وكلامها، وشعارها الذي يتألق دوما فى عالمه: "ستقدر يوما يا زياد".

وفى هذه اللحظة يُجلجل صوت الكروان فى الفضاء ليُردد معه الدعاء الخالد: "الملك لك لك يا صاحب الملك!".

حقا: تغيّر شكل الدار، وبدت زهور البشر كخلية نحل تملأ الدنيا حيوية ونشاطا، وكان وراء كل ذلك: الرجل الصغير "زياد"، وكلّ حَسِبَهُ طيفا أو ملاكا هبط إلى الأرض، لأمر لا يعلمه إلا الله.

ـه أجلّ العلماء!: أولئك الذين يبذلون حياتهم، ويفنون أعمارهم من أجل نـرة الحياة وإسعاد البشر؛ فقد أثمر بحث "الدكتور يوسف" إضافة علمية، ومفهوما يُعدّ وثبة في علاج الصغار المعاقين، واختار للبحث عنوانا مُلفتا: "العلاج بالإرادة". ومن أهم ما جاء فيه: إن "زياد" يتمتع بقوة الإرادة، والثقة بـالنفس، والإقدام والإصرار، وهي إن كانت من مكونات شخصيته، إلا أنها تـدّت بجلاء بعد الإصابة التي أوقفت مسيرته، وباعدت بينه وبين مُراده ومَناله.

وأكدت الدراسة أنّ هذه الصفات مُكتسبة؛ بما يعني إمكانية أن يكتسبها لطفل المعاق، بشرط أن تكون في أعماقه أمنية غالية تعدل عمره. بدونها لا ستقيم حياته، ولا يُفرّط فيها مهما تكلف من بذل، وتضحية. وقد دلّل على سلامة نظريته بالعدوى التي أصابت كل من "عصام وسماح وحازم"، وغدا تُصيبُ الصغارَ جميعا، وفي بحثه يُرجع الفضل إلى البطل الصغير الذي استطاع أن يَقلب الموازين بعزمه، وإصراره، وإرادته.

إلا البريق الذي يتألق في عينيْ "زياد" دون أقرانه؛ الذي أثار اهتمام "الدكتور يوسف". لكم فكر، ولكم بحث في الكتب والمراجع، وذهبت جهوده سُدًى؛ فلم يتناول العلمُ مثل هذا، ولم يتطرق إليه من بعيد أو قريب، وسيظل مصدر ذلك الوميض مجهولا وغامضا، حتى على "زياد" نفسه، ويتوقع "الدكتور يوسف" بأن الغد يحمل مفاجآت بشأن "زياد".

(٥٨)

أصبح زياد محط الأنظار بدار الرعاية، إنه يُدرك ذلك، ويقرأ الحب في عيون الجميع و.. ما أجمل هذا وأروعه!، ولكنه لا يُرضي نفسه، ولا يُشبعُ تطلعه وطموحه؛ فكلّ حلمه أن يكون نجما بملعب كرة القدم. ينتزع الإعجاب

والهتاف: بالملعب لا بالدار، ولا فوق خشبة المسرح، ولا على أرفع منصّة!. الملعب ليس إلا!. ساقته قدماه إلى حيث صيوانه. فتحه. أطلت إليه الكرة. ارتدى الزيّ، واحتضن الكرة. ضمّها إلى صدره، واتخذ طريقه إلى الفناء دون العصا. لقد استغنى عنها بإرادته لتُصبح ذكرى!.

وضع الكرة تحت قدمه السليمة. تلفت من حوله. أخال الجماهير المترقبة تملأ المدرجات!. سأل نفسه: أيسدد بالسليمة أم بالمصابة؟ مُصابة!. كانت مُصابة، وكان فعل ماض: كلاهما واحد ولكن. المهم.. سدد بالسليمة فانزلق!. ماذا؟!. دبّ قلبه. هل ضاع كل شيء؟!. مستحيل!. إنه. إنه لم يتدرب منذ زمن بعيد. فليسدد ثانية. تحامل على نفسه ونهض من عثرته. سدد فانزلق!. آه!. فقد ضاع كل شيء وضِعتُ أنا:

– كلا. كلا. كلا!.

سمعوا صراخه فهرولوا إليه يتنازعهم الخوف واللوعة والذهول!. يا لهذا المسكين!. يخرج من حفرة ليقع في أخرى أشد عمقا!. حزنوا من أجله، وشملهم الوجوم. يا الله!. لقد أتت غمامة سوداء واستقرت على وجه القمر فحجبت نوره!. أنّى تنقشع الغمامة ليُضيء القمر بنوره القلوب والحياة؟!.

لم يلزم الفراش هذه المرة؛ فلم تتأثرأعضاؤه، وإنما تراجعت حالته المعنوية والنفسية. لم يكن بحاجة لأدوية وعقاقير، وإنما يعوزه العلاج النفسي، والحقن بالمعنويات لعودة الروح.

إن تعلق "زياد" الشديد بكرة القدم، وإصراره على تحقيق هدفه كان السبب المباشر في تقدم حالته، وهو السبب أيضا في تعدد وعْكاته وأزماته النفسية. إنه يرفض بشدة كل ما يُقصيه عن هدفه، ولا يرضى بأى بديل؛ فليس هناك ما يعدل أمنيته ليبدلها أو يَحيدَ عنها. وكأنه أراد أن يجعل المستحيل ممكنا!. إنه

الآن يعاني من فقدان الثقة، ولا بديل عن رفع معنوياته لإعادة الثقة والأمل لمفقودين.

(٥٩)

دعاه "الدكتور يوسف" إلى جولة بحديقة الدار، ويلبّى "زياد" الدعوة لرغبته الأكيدة في الخروج من أزمته، ويُنصت "زياد" لحديث الدكتور:

– كُنا وأصبحنا، وأنت الوحيد الذى يقدّر معنى هاتين الكلمتين. كان الطريق متشابكا، وكان طويلا بلا نهاية، وأنت الذى حددت النهاية بعزيمتك وإصرارك. قد تحدّيت العجز، وألقيت بالعصا، وخطوت،ثم خطوت، وقطعت شوطا طويلا، واقتربت من النهاية. فات الكثير ولم يبق سوى القليل.

وانطلق صوت الكروان كأنما يؤيد كلام "الدكتور"، أو أرسلته السماء ليقوم بدوره فى إعادة الثقة وبعث الأمل!.

وهذى "أميمة" تمسك بيده، وتجعله يلمس الحقيقة، وينظر إلى أقرانه ليجد الفرق واضحا جليّا، وليرى بعينه أنه أيقظ فى نفوسهم الأمل، وبدا القدوة والمثل الأعلى. والقائد لا يهرب من ساحة الوغى، ويواجه الشدائد، ويقاوم الصعب، ويقول للأزمات: "هأ أنذا". أ لم تقل إن الأسد سيحنّ يوما لماضيه، ويستعيد قوته، ويدمر القضبان، ويحرر نفسه!. أ لم تحرر عصافير الكناري؟.

ويزوره طيف "سلمى" كالعادة خاصة وقت الشدة؛ ما أخلصك يا "سلمى"!، وما أوفاك من صديقة!. تذكر كلامها عن عباس بن فرناس؛ الذى حلّق في الفضاء!. سبحان الله!. إنسان يقلّد الطير ويُحلّق فى الفضاء!. يا للإنسان الطموح!. إنه جدير بحَمْل الأمانة، وسيادة الأرض كما قدّر الله!.

وحكايتها عن العصفور الذى بنى عشّه؛ قشّة من هنا، وأخرى من هناك، ودون إنذار تُطيّر الرياح العُش!. لم يُحبطْ العصفور، أو يتحسّر ويندب حظه، وإنما هبّ من فوره ليبنى العش من جديد.

وعادت "أميمة" تقول له:

– لكم تعبت يا "زياد". أتضيّع كل هذى الجهود فى غمضة عين؟!. إلا أنك تخليّت عن أملك، وقررت الاعتزال قبل أن تحقق النجومية والشهرة. ولمن تصفق الجماهير؟!، ولمن تهتف؟!.

تأمل "زياد" الكلام، ودقق النظر فى معانيه؛ إنه يَصُبّ فى صالحه، وينسكب فى جداول حياته؛ ليروى زرعها الظمآن، وقد كان متحرّقا للمياه، وكاد أن يموت عطشا؛ لتدبّ فيه الحياة!.

وأصحاب الكلام: أحبّاؤه وأصفياؤه، ويبتغون له الخير كله، والصلاح كله. إنه صوت العقل الذى استمع إليه وأنصت؛ لتشفى نفسه، وتبرأ من سُقمها حين تبددت وساوسه، وزالت هواجسه. عندئذ يسترد ثقته بنفسه، ويعود الأمل ليرفرف فى أفق حياته، وهبّ ينفض عن نفسه هوام الإحباط، ونوازع الفشل. وبدا كأنه بُعث من جديد!.

(٦٠)

انقشعت الغُمة، وانزاحت الغمامة، وبان وجه القمر وضّاحا يُرسلُ النور؛ فيداعب زهور البشر لتنهض من مرقدها بعد عكوف اضطرارى؛ لتملأ الدنيا جمالا ومرحا. لقد بُعثت الحياة فى الدار حين عادت روح الدار!.

إعمالا بالحكمة القائلة: "درء الخطر قبل وقوعه". فقد دق "الدكتور يوسف" جرس الإنذار؛ موضحا أن سكون "زياد" بمثابة السكون الذى يسبق العاصفة، وما تزال النار مخبوءة تحت الرماد، وأنّ حاله كريشة فى مهبّ الرياح؛ بما

حتى أنه مُعرّض للإصابة بانهيار مفاجئ: كزلزال لا يسبقه إنذار. وساعتها لا شفى كلام، ولا يُجدى علاج، ولا ينفع بكاء، وسيلاحقنا الندم حتى الموت؛ يط يوجب المبادرة بحلّ مشكلته تفاديا لسوء العاقبة، وقبل أن تقع الفأس فى الرأس. وبعد مشاورات وتبادل الآراء، رأت إدارة المستشفى ضرورة التدخل الجراحى.

ءأسند إلى "رفيدة" مخاطبة والد "زياد"؛ التى سرعان ما اتصلت به، وعرضت حليه رؤية الدار، بضرورة سفر "زياد" للخارج لإجراء عملية جراحية؛ لينزعج لأب، ولكن طمأنته "رفيدة" بأن حالة "زياد" متقدمة، ونسبة نجاح العملية تصل إلى أكثر من خمسة وتسعين بالمائة؛ لتنفرج أسارير الأب. وتضيف "رفيدة": بأنّ نسبة العجز بعد العملية تتراوح بين عشرة وخمسة عشرة بالمائة؛ ليتهلل وجه الأب مُبديا موافقته مهما بلغت التكلفة، وما لبث أن التقى بمدير الدار وكتب إقرارا بالموافقة، كما حرّر صكا مفتوحا يُصرف لحامله.

دعا المدير لاجتماع بشأن الترتيب لرحلة "زياد"، وتوزيع الأدوار كل في تخصصه، وفي خلال يومين تم عمل ملف كامل تضمّن تقارير العلاج الطبيعى، والنفسى، والعضوى، بجانب الأشعات، والتحاليل والفحوصات، وغيرها، وكذا الاتصال بالمستشفى الألمانى التخصصى، و"الدكتور" الجراح الذى سيُجرى العملية، وأيضا شركة الطيران لمعرفة مواعيد الرحلات إلى ألمانيا على مدار أسبوعين؛ كما تم إعداد ميزانية شاملة تكاليف العلاج، والإقامة، ونفقات سفر "زياد" و"الدكتور صالح الشيمى" مدير الدار، الذى قرر مرافقته فى رحلة العلاج.

ونظرا لحدّة ذكاء "زياد" ورهافة حسّه؛ فقد أوصى "الدكتور يوسف" باتخاذ المصداقية والكلام المباشر عند محاورته، أو التفاهم معه.

(٦١)

كانت دهشة "زياد" حين أرسل "الدكتور صالح" فى طلبه؛ لم يُخمّن أو يشغل باله بسبب الدعوة، وسعى إليه، والتقى به "الدكتور"، باشّا ومُرحّبا. وفى ثنايا الحوار؛ ألمح له "الدكتور" بشأن سفره للخارج لإجراء عملية جراحية، وأبلغه نسبة نجاحها، ونسبة العجز بعدها، والجرّاح الألماني الشهير الذى سيقوم بإجرائها و.. يفاجأ "الدكتور" بانقلاب سحنته، وارتعاش شفتيه، ووقوفه؛ هاتفا فى عصبية:

– مرفوض!. لن أسافر، لستُ بحاجة لعملية، ولا أطلبُ العوْن من مخلوق مثلى!.

ويدعه "زياد" فاغر الفم والعينين، ومُحدّثا نفسه:

– " عجبا لهذا الصغير!. فيم يتحدث؟!، وماذا يعنى؟!".

أصغت "أميمة" لحديث "الدكتور يوسف"؛ الذى أيقن أن بأعماق "زياد" قوة خفية تحرّكه، والمثير للدهشة والمطمئن فى ذات الوقت؛ أنه يقبض على الزمام، ويوجّه القياد وفقا لمزاجه وإرادته. وما زال به ينصح بتجنب الضغوط، والاستخفاف بعقل الصغير؛ حتى لو أدّى الأمر لإرجاء السفر، أو إلغائه.

دعته "أميمة" لجولة بين ربوع الحديقة، وجعلت تداعبه وتضاحكه. عندئذ لم تجد صعوبة لتستوضحه عن سبب رفضه لأمر فى مصلحته، ويسعى جاهدا من أجله، ويردّ زياد فى بساطة:

– إن الجرّاح مهما بلغت براعته. ومهما أصاب من شهرة ؛ فإنه بشر. ولن يأتى بمعجزة، وإن الله وحده هو الذى يقدّر المعجزة.

– مؤكد. ونجاح العملية فى حد ذاته: معجزة.

– ماذا؟!.

- وما الطبيب إلا أداة أو سببا. "وَجَعَلْنَا لِكُلِّ شَيءٍ سَبَباً فَأَتْبَعَ سَبَباً" وإن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة، وإن المخلوقات على اختلافها تلتمس الرزق بالسعي. وما علينا إلا السعى والأخذ بالأسباب، والله الموفق.

- ونسبة العجز؟. هذا لو نجحت العملية.

- تفاءل خيرا تجد خيرا. ستنجح العملية بإذن الله. "إِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً". لقد تعبت يا "زياد"، وقطعت شوطا طويلا، وقاربت نهاية الطريق: خطوة واحدة ليس إلا..

وفى هذه اللحظة يأتى إلى سمعه صوت الكروان. وتذكر حديث "سلمى" عن 'عباس بن فرناس"، وحكاية العصفور الذى لا يعرف قلبه اليأس. ويداعب أذنه صوت "أميمة" الرقيق: هل تسافر يا زياد؟.

وردّ عليها بابتسامة؛ لم تر مثيلتها، حين اشتد تألق عينيه بالبريق العجيب!.

(٦٢)

غشيت الفرحة القلوب، وتبدّت فى الوجوه؛ إذ قرر "زياد" السفر.. وفجر يوم الارتحال؛ هرع "زياد" للصلاة، ثم انبرى يتلو آى الذكر الحكيم حتى أشرقت شمس الصباح، وأقبل صوت الكروان الصدّاح.. وقام "زياد" يودّع الحديقة، وزهرة البنفسج الرفيقة، ثم راح يستقبل مودّعيه: أسرة الدار، والأهل، والأقران. و"سلمى". صافح من صافح، وعانق من عانق. حاول كبح دموعه، ولكن تأبّت عليه؛ فطفرت من عينيه، وألهبت جفونه، وانسابت على خدّيه كحبّات اللؤلؤ!.

ودّع الدار، والأهل، والصحب، والأحبة. تأبّطه "الدكتور صالح" يرفيق رحلته الموعودة، وانطلقت السيارة كالفهد المارق، تشيّعها الأعين الدامعة. إلى حيث الميناء الجوى، وأقلعت الطائرة، حين ارتفعت أكفّ الضراعة تدعو الله أن يعود "الدكتور صالح" بالصغير سالما غانما.

يا للأسى!: غاب القمر عن الدار فكستها الظلمة والوحشة، وخيّم عليها الحزن. أواه!. سكت نبض الحياة فطواها سكون الفناء، وبدت كمقبرة!. لله عسى أن تعود الروح فتدبّ الحياة فى الأجساد، ويطلع القمر من جديد، ويطوف النسيم ليوقظ الزهر، ويُصحّى الرياحين؛ فتنشر فى الجو عطرا يبعث النشوة، ويُنعش النفوس!.

طال البعاد، وفاض الحنين. ربى ما أثقل أيام القلق!، وما أشد وطأة ساعات الانتظار!. عقارب الساعة تمضى بطيئة متثاقلة كسلحفاة عجوز هدّتها السنون؛ تمشى حينا، وتركن أحيانا، أو أن عقارب الساعة تدور إلى الوراء!.

ولكن لا أبد إلا الله، وكل آت قريب، ولكل بداية نهاية. إذ يزفّ "لدكتور صالح" البشرى بنجاح العملية، وما أصاب الصغير؛ فقد انبهر الجراح لشهير ومساعدوه بشخصيته وأثنوا على ثباته وإقدامه، وأثارهم بريق عينيه حتى إنهم خلعوا عليه لقب: "قاهر المستحيل"، وزيّنت صورته الصحف والمجلات تحت عنوان:"الفرعون الصغير".

يقولون إن الفرحة المفاجئة كالهلع المفاجئ: كلاهما يخلع القلب، وقد يفجّر المخ، ويودى بالحياة!، وإنّ من رحمة الله على الإنسان أن جعل انهمار الدمع يخفف الشحنة، ويلطّف لطمة الخبر ووقعه سعيدا كان أو مأساويا. هذا كان حال من عرف بخبر نجاح الجراحة التى سافر من أجلها "زياد"، وهُمْ كُثرٌ. إلا الصغار أقرانه؛ فلم تترقرق أعينهم بالدمع، وامتزجت فرحتهم بالأمل؛ الذى

رأوه مُجسّدا فى واحد منهم، وكل ما عليهم أن يحذوا حذوه، ويجعلوه قدوة وأسوة.

أستُقبل "زياد" استقبال المنتصر، ولقىَ كل الحفاوة والتكريم؛ منذ أن مسّت قدماه أرض الوطن. لمح أبويه وأخته بصالة الوصول يشرئبون بأعناقهم. هرول إليهم. نعم هرول!. ولا بأس أن برجله عرج خفيف. أوه!.. كُنا وأصبحنا. لقد أثمر الصبر، وأتى الإصرار بألشهد. ما أقوى أن يتمرد المرء على عجزه وضعفه!، وما أعظم أن يثور الإنسان على ظروفه وأوضاعه فيغيّرها، أو يطوّرها ويرقى إلى الأحسن. "لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فى كَبَدٍ"، وما الكَبَدُ إلا بذل الجهد، واكتساح العوائق، ومقاومة ظروف الحياة، والتصدى للتخلف والرجوع للوراء؛ فما بالك بفتى لم يتعدّ عمره الحادية عشرة؛ ستطاع أن يقضى على ضعفه الداخلى، وبالتالى على عجزه الذى مُنِىَ به، ولم يكن مسئولا عنه فى كثير أو قليل.

(٦٣)

هذا الرجل الصغير: أ ليس جديرا بالتقدير والتكريم؟. ألا يستأهل كأس التفوق لتحطيمه الصعب، وقهره المستحيل؟!.

وفى البيت ضمّته مربّيته "أم الخير" إلى صدرها، وعبّرت عن سعادتها بالزغاريد، ورقصة ريفية، وأقبل الجيران يهنئونه، وقد لمح فى أعينهم الإعجاب والتقدير، وانتحى بـ "سلمى" جانبا يحكى لها عن رحلته وشعوره بالغُربة بعيدا عن أهله وأصدقائه، وطرح سؤالا:

– لماذا جرّاح أجنبىّ، وليس من بنى وطنى؟!.

طالت النظرة بينهما، ولم تعلّق "سلمى"، أو تحر جوابا!.

الأحبّة جميعا كانوا فى انتظاره على جمر الشوق، وكان اللقاء أشد حرارة. احتشدت فيه كل معانى الحب والوئام والصفاء!.

عاد "زياد" أشد ثقة بنفسه، وفى حيوية منقطعة النظير. وكان في جعبته أمريْن أو بالأحرى مهمتيْن: إحداهما تتعلق بشخصه فى استكمال العُشر الأخير في رحلة نضاله: غايته ومنتهى أمله، والأخرى مسئوليته نحو زملائه. فقد عرف طريق الخلاص، وعليه أن يُدلّهم إليه، ويأخذ بأيديهم حتى نهاية الطريق ونيْل المراد. إنه يحب لهم ما يحبّه لنفسه.

ويتخذ "زياد" موقع القيادة: لم ينصّب نفسه قائدا، وإنما جاءت طبيعية بمثاليته، وإنسانيته، وعطائه، وحبه للآخرين، وفى مقدمتهم زملاء محنته.

الحسد رذيلة، والغيْرة خصلة حميدة، وبينهما شعرة، وكل شيء ينحصر فى هذه الشعرة!، الحسود يتمنى زوال نعمة الغير، ولذا يظل فقيرا حتى يودّع الحياة غير مأسوف عليه!. وما الفقر إلا فى الحب والبذل.. والعطاء!، وكل حسود: حقود وخامل، وغير شريف، وكلا الحسد والحقد: نار تندلع فى القلب، ولا تحرق إلا صاحبها!.

والغيور إنسان شريف: يبغى اللحاق بمن سبقه؛ دون كراهية أو غلّ أو بُغض، وإنما بالكد والكدح، وعلى مرّ الأيام يعلو ويسمو، وفى مشواره يأخذ بأيدى الآخرين. أرأيت؟. هذه هى الشعرة!.

لقد دبّت الغيْرة فى نفوس الصغار، وكانت أعينهم على المثل، والدليل الذى يحيا بينهم، ويده فى أيديهم: "عصام، وحازم، وسماح"، وغيرهم. كل بمثل به، ويسير على نهجه ودرْبه، وكل شيء. كل يحاول الوقوف والخطو اعتمادا على نفسه دون العصا. يُخفقون مرارا، وينجحون مرة، وبالعزيمة والإصرار يُخفقون مرة، وينجحون مرارا!، والنجاح يوقد جذوة الأمل، ويزكى لهيبها فى

تجسسهم؛ ليتواصل الصراع، وتستمر العدوى، ويتفشى جرثوم الغيْرة واللحاق بمن سبق، وتحقيق الأفضل، ثم الأفضل!.

في غياب القدوة؛ تخرج جحافل الشر من جحورها؛ لتغيّر وجه الحياة الهيّ؛ فتنتشر العبث والفساد، وتنسف الخير!. لقد ابيضت الحياة في الدار، وزدانت بورود الأماني، وازدهرت بزهور الأمل.

وفي مسيرة كفاحه يشعر "زياد" بتقدمه في مهمتيْه، وذات مرة يجول في الحديقة: يعانق الأشجار بعينيه، ويبتسم للورد والزهر؛ التي أخالها تبتسم له بشاركه فرحته، ويُنصت إلى شقشقة العصافير، ودعاء الكروان، ثم جلس في رحاب زهرة البنفسج. لم تكن حزينة كعهدها، ولا شاردة وحدها؛ إذ رأى من حولها زهور النرجس، والفل، والياسمين. يبدو أنها ائتنست بهم!.

(٦٤)

بالجمال الحديقة!. الدنيا كلها تضحك وتغني لحن السعادة!. وبعينْ خياله يرى الصغار بأرديتهم البيضاء كأنهم الملائكة!. يرقصون حول "سلمى" التي تغني، وهم يرددون:

- "ما أجمل الحياة!. وما أروع الحديقة بأشجارها وورودها وأزهارها، وما أجمل العصافير وكل الأطيار!، وما أعذب صوت الكروان!، وما ألطف النسائم!. الحياة جميلة بالسعي والعمل. الحياة رائعة بالطموح والأمل!. اضحك للدنيا، وغنّ مع الطبيعة لحن الحب والحياة!".

وذات يوم يرتدي "زياد" بدلة التدريب، ويأخذ الكرة، وفي طريقه إلى صالة الألعاب يخال بأنه يسمع صوت المعلّق:

- "المباراة مثيرة وحماسية. الفريقان يتبادلان الهجمات، والجماهير مستمتعة. "زياد" يُطلق صاروخا، ولكن يطير الحارس ويحوّل الكرة إلى رمية

زاوية. ما شاء الله!. "زياد" شُعلة نشاط. يصول ويجول في الملعب. رائع "زياد"!. لقد استعاد مستواه في فترة قصيرة. نمسك الخشب!. دقائق وتنتهي المباراة، والتعادل السلبي هو سيد الموقف. "زياد" يستلم الكرة من زميله. يراوغ الدفاع، ويُسدّد في المرمى على يسار الحارس. الهدف الأول".

تتسع ابتسامة "زياد". يبدو أنه كان يسمع هتاف الجماهير!.

وفي صالة الألعاب. يضع "زياد" الكرة أمامه. ينجح في التسديد.

ترتد إليه الكرة. يحاول إعادتها، ولكن تطيش الكرة حين يتمايل، ولكنه يستطيع أن يتماسك. ينصت إلى صوت "سلمى":

– "ستقدر يوما يا زياد!".

وإلى صوت "الدكتور يوسف":

– "فات الكثير ولا يبقى سوى القليل".

وُفّق في المحاولة الثانية، وفي كل المحاولات!. تتسع ابتسامته لتملأ محيّاه!.

وفي الليل يسهر وحده. يتأمل السماء الداكنة تحوط القمر الوضيء' أخال بأنه وجه "سلمى" يحوطه شعرها الفاحم!. نقل بصره إلى النجوم التي تتألق على استحياء. لعلها خجلى في وجود القمر!. ثم يُنصت إلى دعاء الكروان. عندئذ يُنير المصباح. وفي دفتره يكتب العنوان: "غدا يوم مولدي"، ويتعجل قلمه الكتابة ليلحق بأفكاره، وما يدور بخاطره. ثم يودّع القمر، ويذهب إلى فراشه. لم ينم وإنما جعل يتلو كتاب الله. أخذته غفوة من النوم. يرى نفسه داخل زورق، وهو يجدّف ليمخُر عباب البحر، والعرق يتصبب من جبينه. وفجأة تحجب السحب ضياء الشمس إلا شعاعا من بعيد. يشتد بريق عينيه. يجدّف في حماس كأنه يسابق الزمن. وسرعان ما تهبّ العاصفة، ويسقط

المطر غزيرا. تتوقف الأمطار، وتعود الشمس لترسلَ ضوءها. الشاطئ على قيد أمتار. الفرحة تظلل وجهه. وما زال يجدّف!.

(٦٥)

تقلب "زياد". يرى نفسه داخل مصلى الدار يناجى ربه بصوت تخنقه العبرات. تنفتح كوّة بالسقف. وتدخل عصافير الكنارى. تحوم فوقه ومن حوله، بينما تصدر صيحاتها السعيدة، كأنما تزفّ إليه خبرا!. ما زال يتأملها والفرحة تملأ جوانحه، وتُطلّ من عينيه. ثم يُنصت إلى لحن ملائكىّ يأتى من السماء!.

يصحو "زياد" من نومه ويده تضم المصحف فوق صدره، وما تزال صيحات الكنارى تطنّ فى أذنيه، واللحن الملائكى يدغدغ أحاسيسه!. ولو أنه أطلّ بالمرآة لشاهد أروع ابتسامة!.

النشوة تتسلل إليه، والدماء تسرى فى كل أعضائه، ويلفّه هدوء، وتنتظم أنفاسه كأنما انزاح الكابوس من فوق صدره!. ما الأمر؟!. وضع قدميه على الأرض. شعورٌ جديدٌ ينساب فى كيانه. يتأمل قدميه. يحرّك المُصابة. ماذا؟!. إنه يحركها بسهولة كأنما تحررت من قيدها عجبا!. تُرى ماذا حدث؟!. أ هذه بشارة عصافير الكنارى؟!. أ لهذا كانت تطلق صيحاتها السعيدة؟!. ما أوفاك أيتها العصافير!. وقف. خطا، ثم خطا. واصل سيره. إنه لا يتمايل، ولا يعرج!. تتسع ابتسامته الذاهلة. يضحك، ويضحك!. ضحكاته يرنّ صداها فى جنبات القاعة. يُطلق ضحكة أوصيحة!. يخرج. لقد سمعوا ضحكاته وصيحته. خرجوا ليستطلعوا الخبر، ويقفوا على ما يبعث على الضحك والصياح. إنه يتقافز!، ويجرى هنا، وهنا، وهناك!. الجميع فى ذهول!.

ينطلق إلى الحديقة ويجرى فى طرقاتها. يخال عصافير الكنارى تحلق فوقه؛ بينما تطلق صيحاتها أو زغاريدها. الدنيا جميعا تغنى له، وتشاركه فرحته!.

وسرعان ما ينتشر الخبر؛ ليهرع الصحفيون إلى دار الرعاية، وليتزاحموا حول "زياد"؛ يُسائلوه عن رحلة معاناته، وكيف قهر المرض، وانتصر عليه. لم يهب "زياد" الموقف رغم صعوبته، وردّ فى لباقة اندهش لها الجميع!، ثم استكملوا التحقيقات الصحفية مع أسرة الدار وكل من ساهم في رحلة علاجه. سجّلوا كل شاردة وواردة. ومواقف مثيرة، وطرائف شيقة، ونوادر رشيقة عن "زياد"، وبالطبع لم تهدأ عدسات المصورين، ولم تتوقف عن التقاط الصور.

وصباح اليوم التالى يتصدر الحدث الجلل كافة الصحف، واقتطعت له صفحات عديدة مع عناوين مثيرة: " صفحات مشرقة فى حياة البطل. زياد قاهر المستحيل. طرائف زياد عاشق كرة القدم. المؤمن الصغير لا يعرف اليأس. بريق في عيني الصغير. بطل التحدى والإرادة. البطل يحقق إنجازا غير مسبوق. وفود العلماء تلتقي بالطفل المعجزة". وغيرها.

(٦٦)

وتنهال عليه وسائل الإعلام من كل حدب وصوب!. كما تستضيفه إحدى القنوات؛ ليحكى "زياد" قصة كفاحه، وكيف تحدّى الإعاقة، وانتصر عليها بعزمه وإصراره وإرادته، كما أطنب فى حديثه عن الشخصيات التى أثّرت فيه تأثيرا بالغا، وكان لهم الفضل الأكبر فى نجاحه. كم سهروا على راحته، وكم تفانوْا فى خدمته، وكم أحاطوه بالرعاية المتكاملة طوال فترة صراعه. كانوا له كما كانوا لرفاقه أمهات وآباء. إنهم بحق ملائكة الرحمة، ولقد حفر أسماءهم وصورهم على صفحة قلبه. أيضا تناول شخصية "سلمى" التى كانت بالنسبة له الشرارة التى أوقدت نيران عزيمته وتصميمه وإصراره. كما تحدث عن

فلسفته التي تتأسس على إيمانه العميق، وثقته البالغة في إمكانية الإنسان غير المحدودة، وقدرته الفائقة على كسر القيود، والتمرد على الرجعية، والثورة على الانهزامية؛ بهدف التغيير إلى الأحسن، وبُغية التقدم إلى الأسمى والأرفع. وكان شعاره:

- "المعجزة من صنع الله؛ فأين صنعي؟".

وفي نهاية لقائه: حث رفاق الأمس وأصدقاء اليوم وكل يوم: حثهم على المُضيّ قُدُما في طريق الأمل، وبإذن الله؛ سيتحررون من أسرهم، ويبرأون من عجزهم.

الآن حصحص الحق، وبانت آية الله، وتحققت المعجزة، ولم يكن شعاع عينيه إلا منحة القدر ولمحته الخاطفة!. حقا إن للأمل وميضٌ وبريقٌ ما أعجبه!، وما أروعه!. هذا ما جرى على لسان حال "أميمة" عندما زارها طيف "زياد" وكانت عيناها تترقرق بدموع الفرحة!.

ويبدو أن بكتيريا الإرادة قد تفشت في دماء الصغار!. ففي إحدى زيارات "زياد" للدار: رأى بعينيه أكثر من رفيق يمشي دون عصا!، وأعينهم تتألق بالأمل، ونفوسهم يملؤها الإصرار لتحدّى العجز وسحق المستحيل. بينما كان "زياد" يُعدّ ليُسطر حكايته. رنّ جرس التليفون، وكان محدثه مدرب الأشبال بالنادى الكبير.